خالد محمد خالد

# الوَصَايا العَشْر

«لِمَن يُريدُ أن يحيَا»

الناشر . مكتبة وهبة
١٤ ش الجمهورية . عابدين

خالد محمد خالد

# الوصايا العشر

« لمن يريد أن يحيا »

١٩٦١

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعابدين

# الإهداء

إلى الشّباب أوّلاً ..

وإلينا جميعاً ..

أُقدّم هذا الكتاب

# فى هذا الكتاب

صفحة

# مقدمة

أخشى أن تشعركم كلمة « الوصايا » بأن من ورائها « واعظا » يُملى عليكم مواعظه . أو « مُعلما » ، يخاطبكم من فوق مِنصَّة الأستاذية . . ! !

من أجل هذا ، يطيب لى أن أبدأ حديثى معكم قائلا :

— أيها الأصدقاء . . لست واعظا ، ولا مُعلما . إنما أنا إنسان — مجرّد إنسان — يحب الناس كثيرا ، ويرجو لهم الخير جميعا .

وهو لهذا ، إذا رأى هُدى أو عرف خيرا ، سارع فدعا الناس إليه ، وبادرَ ، فحضهم عليه . . حتى ذلك الخير الذى قد يعجز هو عن إدراكه — يجد غبطة نفسه جميعا فى أن يَدُلّ عليه كل قادر ، ويُنادى إليه كل مُثابر . .

* * *

ولو أطعتُ بعض خواطرى ، لاحتفظتُ بهذه « الوصايا » لنفسى . أقيسُ بها تقدمها ، وأستحثُّ بها تخلفها . وأحملها على السير وَفقها ما استطاعت لهذا سبيلا . .

لكنّ طبيعة « الكاتب » غلبتني . . وأيضاً طبيعة « الإنسان » الذي يرى مصيره ، ومصير الناس كلهم شيئاً واحداً . . ومن ثمّ فواجبه ألا يرى لنفسه وحدها ، وألا يفكر لنفسه وحدها ، وألا يكتم كلمة يراها نافعة ، أو رأيا يحسبه صوابا . .

ورُبّ مُبلَّغ ، يكون أوعَى من سامع . .
ورب قارىء ، يكون أهدَى من كاتب . .

* * *

ولئن جاءت هذه الوصايا « عشراً » فى تعدادها ، فإنها « واحدة » فى موضوعها . .

ففيها جميعا ، تسرى وحدة الغرض . . وبينها جميعا يؤلف تناُبع الغاية . .

وإنها لتبدأ ، وتنتهى فى خدمة محاولة واحدة ـ هى انتصارنا على ضعفنا ، وتمكيننا من الشّدّ على « دَفّة » الحياة بأيدينا . .

* * *

ولم أُرد لهذه الوصايا أن تكون « مدينة فاضلة » أشوق الناس إليها . .

فإن ولاءنا للحرية . يتأى بنا عن أن نُخضع « الرُّوح الإنسانى » لأى تخطيط . .

وحسب هذه الوصايا إذن ، أن تكون للقارىء دليلا يستعين به على بناء « مدينته الفاضلة » بنفسه ، ولنفسه . كما يريد هو ، وكما يختار . .

* * *

وقديماً ، سمع أحد الحكماء رجلا يقول فى مرارة النادم : « ياليتنى لقيتُ مَن يقول لى » . . .

فأجابه الحكيم قائلا : — « بل ياليتك عملت بما كان معك » :..!!

وهذا حق .. فمع كل منا هُداه . ومزية الخير ، قدرته على أن يحمل نفسه واضحاً ومُصَدَّقا، بحيث لايحتاج إلى براهين تثبت وجوده أو توكد قيمته ، أو تدلّ عليه . .

وهذا بالطبع ، لايُضائل من قيمة المعرفة . . إنما يرفع إلى مستواها ، قيمة العمل والمثابرة ..

فلتكن هذه الوصايا تذكيرا ، أكثر منها تبصيرا . .

ولتكن حافِزاً ، أكثر منها شرحا وتفسيرا . .

* * *

وأنت . . وأنا . . قد تواتينا القدرة على الأخذ بهذه الوصايا جميعا . وقد نقدر على بعضها ، ونعجز عن بعض . .

ومهما يكن الأمر ، فلا ينبغى أن نيأس، أو نتخذ من العجز مرفأ يرسو عليه زورق حياتنا ..

بل علينا أن نحاول دوما ، ونحقق منها ، ومن الخير ما .
وسنجد كمالنا فى أولئك الذين يستطيعون أن يحققو :
ويضيفوا إليها جديدا .. كما سنجده فى هذا القدْر المشترك ،
معاً ، ومثابرتنا دائماً ..

* * *

والآن . لننهض سوياً ، نحن الذين نلتقى حول هـذ
والوصايا . .

وليحاول كل منا أن يَسْتبق . . فهـذا هو السّـبا
حقا .. النبيل حقا .. العادل حقا ..

وعلى الذين يَصلون أولاً ، ويبلغون الغايةَ مبَا .
يُلوّحوا لنا من هناك بأيديهم . ، لنفرح بإخوة لنا .
وليشدّ عزمَنا . الأملُ فى أننا بهم لاحقون ..

خالد محمد

هَلَّت عُصُورُ الحُبّ
فَوَدِّع الكَراهِيَة

منذ متى ، والبشرية ترتعد تحت وطـــأة صقيع الكراهية ، وزمهرير البغضاء . . ؟ ؟

منذ عهد بعيد يمعن فى البعد . . منذ ساق أحد ابنى آدم أخاه إلى المجزر لأن الله رفض قربانه ، وتقبل قربان أخيه ، ومنذ أحس ذلك القاتل ، الوحشة الضارية التى خلفها له غياب أخيه ، وراح يقلب كفيه الآثمتين ويجتر حسرات قلبه الخواء الذى فقدَ الإلف ، ففقدَ أشهى مباهج الحياة . . !

منذ ذلك الحين البعيد ، والإنسان يصطلى بالكراهية ، ويبحث عن الحب ؛ ليبث فى نفسه السكينة ، وفى حياته الأمن .

والبحث عن « الحب » بحث عن « القانون » الذى ينظم سير الحياة ويضمن بقاءها .

وعبر الزمان المديد ، كان الرسل والهداة ، والمصلحون ينطلقون من ضمير البشرية ليرتادوا المجهول ، وليبحثوا لها عن قانون حياتها وتضرّجتَ الأرض بدماء الكثيرين منهم . اغتالتهم الكراهية التى شحنت كل قُواها ؛ لتفتك بهم قبل أن يفتكوا بها . .

وكان كلما ارتفع للحب راية ، خفقت للبغض رايات . . ؟ وتحرك ميراث الغابة فى جيشان صاخب ، أحقابا تلو أحقاب ، زاعماً للناس أن الحب ضعف إنسانى ، وزاعماً لهم كذلكَ أن البقاء للأشدّ ساعداً ، الأحدّ نابا ، الأكثر استعاراً بنيران الحقد ، والأنانية ، والاستعلاء . !

وتعثرت البشرية ، وخاضت فى مستنقعات الكراهية التى كادت تبتلعها .

وما أكثر العصور التى عجزت البشرية فيها عن إحصاء ضحاياها ، إذ كان الضحايا يفوقون كل قدرة على الإحصاء ..!!

وما أكثر المناسبات التى جعلتها البغضاء « مواسم حصاد » تحصد فيها الناس ، وكل ما يصطنع الناس لأنفسهم من علاقات التفاهم والإخاء ..!!

* * *

بيد أن الإنسانية تحمل فى طواياها إمكانيات صعودها . . تلك الإمكانيات التى طالما قاومت البغضاء ورواسب الغاب ، وطالما خاضت ضد الكراهية معارك كُتب لها من الفوز، بقدرما بُذل فيها من الجهد .

كان الحب الذى فطَر الله الإنسانيه عليه ، يعمل فى أناة ومثابرة . . وكان يتخذ من كل شىء سبباً يَدعمه ، ويزكيه . .

فحين يرتبط الإنسان بالأرض فى قديم الزمان ، يتخذ الحب من ذلك سبيلا لينمى نفسه داخل ضمير الإنسان ورُوحه . .

وحين يرتبط بالأسرة ، يبرز الحب كقانون للعلاقة بين الرجل وزوجته ، وبين الزوجين وبنيهما . .

وينشر الحب وجوده ، ويفسح رحابه . كاسحاً أمامه البغضاء التى كانت تتطوّح تحت ضرباته فى مثل جُنون العواصف وعربدتها . .

وبعد محاولات وجهود ، اكتشف الإنسان أن « المحبة » هى القانون الحقيقى لوجوده ، بل للوجود كله .

فالجاذبية ، عماد الكون . . السماوات ، والأرَضون . . الشموس ،

والكواكب ، والنجوم ، والأفلاك جميعاً . . كلها شاد الله بناءها ، وشدّ أزرها بالتآلف والجاذبية . ؛ حتى الأضداد التى تتباين خصائصها . . تؤلف ذات بينها جاذبية خفية ، تجعلها تعمل معاً ، وكأنها شىء واحد ، لا أضداد مختلفة . . ! !

تبين الإنسان أن الحب قوام طبيعته ، وجوهر طينته . وأنه خُلق ليُحَب ، ويُحِبّ . . ليألف ، ويؤلَف . .

تبين له أن « ميراث الغابة » الذى يحضه على الكراهية ، ليس النار التى ستحرق مصيره . . بل النار التى ستُنضج مواهبه ، وتصهر سبيكة الحب ، وتنقى جوهره . .

وهكذا ، رفع مرَاسِيه ، وأنزل سفنه فى البحار الدافئة . . ومضى ينمى ثراءه الروحى عن طريق اصطناع العلاقات الطيبة التى تُدنيه من المحبة ، وتباعد بينه وبين ميراث الغابة . .

والأرض التى روتها البغضاء بدماء ضحاياها ، زرعها الإنسان وروداً ، وأزاهير . .

والأكداس الهائلة ، والجبال العالية من جثث الشهداء ، رفعت الإنسان عن الوحل ، وأبعدته من المستنقع . .

وكل تجربة مريرة خاضتها البشرية ، واكتوت فيها بنار الكراهية ، تحولت إلى خبرة غنية ، وإلى سطر مضىء ، فى وثيقة خالدة تُعلن سيادة الحب ، واقتراب ملكوته . . ! !

وعرفت البشرية الحق وفتحت عينها عليه ، حين عرفت أن الحب يعنى بالنسبة لها ، ما تعنيه الحياة ذاتها . وحين أدركت أنه لا الدين ،

ولا الوطن ، ولا اللون ، ولا الدم . ، ولا أى شىء فى الدنيا من حقه أن يدفع بالمحبة إلى الوراء . .

ووقف واحد من الأفذاذ ـ هو محي الدين بن العربى ـ يعبر عن هذه الحقيقة ، فيقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ، ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبةُ طائف
وألواحُ توراة ومصحفُ قرآن
أدينُ بدين الحب أنَّى توجهتْ
ركائبُه . . فالحب دينى وإيمانى

* * *

منذ عهد بعيد . وملكوت الحب يقترب . . ولكنه فى عصرنا هذا يسرع فى اقترابه .

ونحن ـ أبناء هذا العصر السعيد ـ سنشهد ليل الكراهية يقترب من فجره .

أقول : سنشهد . . لا ، بل نحن نشهد فعلا . ولا تحسبن هذا إغراقاً فى التفاؤل . . بل هو إدراك لحقيقة تسطع سطوع الشمس .

لا تدعْ فتن السياسة الدولية تخدعك عن رؤية هذه الحقيقة . . فكل ما تراه من اضطراب وقلق ـ إنما هو أشبه الأشياء ببقايا طعام حامض ، تلقيه أمعاء سليمة وتلفظه معدة قوية .

إن الحياة الإنسانية تتقدم ولا تتأخر . . تزدهر ، ولا تذوى .
وحين نبلو أمرها ، نجد أن جوهر ازدهارها ـ هو الحبُ . .
تأمل تلك الظواهر العابرة فى حياتك ، وفى حياة الناس . تجد الحب جوهر كل ازدهار . .
إذا ذهبت للقاء عروس ترجوها ، ارتديت أبهى ثيابك . .
إذا زارك صديق تحبه ، تحول بيتك إلى عُرس ومهرجان . .
إذا أحببت عملك ، تفانيت فى أدائه وإتقانه . .
إذا أحببت زوجتك ، تمنيت أن تنجب منها بنين وحَفَدة . .
إذا أحببت قانوناً ، أحترمته . .
إذا أحببت أستاذاً ، أحببت المادة التى يدرسها . .
إذا أحببت وطنك ، لم تفكر فى خيانته . .
إذا أحببت الحياة ، لم تفكر فى الانسحاب منها . .
وكلما تمر بنا تلك اللحظات التى تتفجَّر فيها أنفسنا محبة وشوقا ، وصداقة ووُدّاً ، ؛ فإذا بأفئدتنا تهفو نحو كل خير وتفيض توفيراً واحتراماً للحياة ، وتبدو الدنيا بهيجة ، والناس طيبين ، والمستقبل مفرداً . .
لحظات الحبور هذه ، لا تكاد تواتينا صافية مشعَّة إلا حين تحيا نفوسنا فى حالة حب ظافر .
ونحن نظلم الحياة حين نحسبها فقيرة أو بخيلة بهذا الحبور ، فالحق أنها تعطى منه بغير حساب لمن يهيىء نفسه لتقبّله ، وذلك بأن يطهر قلبه من البغض . ويحيا فى وفاق مع نفسه ومع الناس .

إن الإحساس بالجمال ، وبالمحبة ، وبالحياة ، قريب من كل فؤاد ذكى ، وكل قلب سليم .

والقلوب الذكية السليمة ، هى التى تدرك روح الخير وتحياها .

وروح الخير فى عصرنا هذا تحظى بأوفى قدر من الوضوح ، وأوفى قدر من الاتحاد مع روح العصر ذاته

فمن مزايا عصرنا هذا أنه عَرَف ـ وبوسائله هو ـ كل القيم الصحيحة ، واللازمة لاستمرار الازدهار البشرى .

وعلى رأس هذه القيم جميعا ، وَضَعَ الحب ، وأعلى رايته . .

الحب الخالص القوى النامى ، الذى يقول للكراهية : وداعاً . . !

وكل مظاهر الكراهية المتبدية فى عصرنا هذا ، تمثل ـ لا غير ـ آلام المخاض الذى يبشر بالوليد المنتظر ويُرهصُ به . .

وهذا الوليد ، هو عالم لا بغض فيه أبداً . ولا حقد فيه أبداً . .

وأنت ـ يامن تتلو هذه السطور الآن ـ واحد من الجيل الذى اصطنعته الأقدار السعيدة ليقوم باستقبال ذلك الوليد المهلّ ، حيث الحب الوثيق ، والإخاء العميم . فودّع الكراهية ، وخذ مكانك فى صفوف المحبين الوُدعاء .

أنت واحد من الجيل الذى وضعت على كاهله تبعات الميلاد .

ميلاد الإنسانية التى طال شوق الله إليها . . والتى من أجلها أرسل الرسل المباركين . وأيّد جهاد الرواد والمصلحين . .

الإنسانية التى تختنق الكراهية من حياتها ، والتى تقود المحبة العظمى سلوكها وتهدى خطاها .

الإنسانية التى يقول كل فرد فيها لأخيه : يا أنا . . .

فاعمل من أجل أن يقترب هذا الميلاد .

ومهما يكن عملك فى هذا السبيل ، فلن يكون عملا ضائعاً . ، لأنك لست وحدك . . بل هناك ملايين من الناس مثلك مبثوثون فى الأرض . يحملون الشُّعل المضيئة . وتموج أفئدتهم بمشاعر الود الخالص . . يتكلمون بلغة الحب ، ويسيرون تحت رايته .

وإنهم على بعد ما بينهم من مسافات ، ليعيشون معاً وإن لم يتم بين أشخاصهم لقاء . . وإن مشيئتهم الواحدة ، لتجعل من شتاتهم أمة واحدة . وهؤلاء ـ قبل سواهم ـ هم لبنات العالم الواحد الذى ننتظره .

لست وحدك إذن ، فانهض وخذ مكانك بين رفاقك العظام .

لا تسىء الظن بعصرك ، ولا تحسب : إذا كنت محباً ـ أنك « عصفور بين غربان » أو أنك « صالح فى ثمود » . .

فالحق أن « غربان » البشرية تنقرض . . وسيطوى الغد القريب كل بقاياها التائهة ، وستخلص الحديقة للعصافير المغردة .

إن الحياة تفتح ذراعيها الحانيتين لتضم إلى صدرها الودود ، كل محب ، ودود .

وإنها لتنادى الطيبين الوُدَعاء : ـ إلىَّ يا بُذور الغد المجيد . . إلىَّ يا طلائع البشرية المقبلة . .

وإنها لتدَّخر لهم كل طيباتها ، وكل مقاعد الشرف لديها .

لم تعد الحياة الإنسانية تأبه إلا للبطولات التى تنطلق من الخير وتعمل وفق أغراضه .

ولقد أنزلت عن عرش التاريخ جميع الذين نسجوا مجدهم من التسلط والاستعلاء وبث الكراهية .. ورفعت مكانهم ذوى القلوب الكبيرة الذين بسطوا أيديهم بالخير، وبشّروا بين الناس بالحب ..

لقد أنزلت « جنكيزخان » ، ورفعت « بوذا » ..

طوت أعلام « بونابارت » ، ونشرت أعلام « باستير » ..

دمرت صولجان « هتلر » وقدّست مغزل « غاندى » ..

لم يعد التاريخ يقف عند ذوى البأس والسطوة .. بل مع ذوى المروءة والحق .

لم تعد تبهره بطولات الفتح العسكرى ولا السياسى .. بل تبهره بطولات الفتح الإنسانى الذى يجمع الشّتات ، ويقاوم التمزّق والكره ..

لم يعد ينثر الورود على الذين يضعون أنفسهم فوق الناس .. بل على الذين يبذلون جهودهم لخدمة الناس .

فإذا بَذلْتَ من قلبك للآخرين حبا ، وصفاء ؛ فلن يكون قلبك موضع السخرية ، ولا الجحود .

فانهض ، وخذ مكانك بين رفاقك العظام .

إن معايير الحياة الإنسانية قد استقامت ، ونجَتْ من قوى الزيف والمناورة .. وإن المحبين الطيبين ، لن يُسلموا بعد اليوم للنُّكران ، ولا للضّياع .

من يزرع البغضاء ، سيحصد القطيعة ...

ومن يزرع المحبة ، سيجنى الحياة ..

لقد استقام الميزان تماماً ، ولن يَعتوِرَ كفّتيه اضطراب .

إذا أحببت الناس صادقاً ، فلن يكرهوك أبدا . .

صحيح أنهم قد يفعلون ذلك بعض الوقت ، لكنهم لن يلبثوا إلا قليلا ثم يعودون إليك تسبقهم قلوبهم .

ذلك أن الناس الذين يكرهون إنساناً يحبهم ، إنما يدفعهم لهذا إحساسهم بأنه متميز عليهم .، فهو يحب ، وهم يبغضون . . وهو يسمو وهم يهبطون . . ومن ثمّ يتخذون نفس الموقف الذى اتخذته بعض الأمم من أبنيائها حين قالوا « أخرجـــوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون » . . ! !

لكن التفوق الأخلاقى يحمى نفسه ويفرض كلمة . . من أجل هذا سرعان ما يكتشف المبغضون خطل موقفهم، فيعودون مهرولين إلى من أحبهم ونفروا منه . . ويجدون فيه واحة يلتمسون عندها السلام والراحة ، وتضع عنهم أوزارهم التى أنقضت منهم الظهور . .

ذلك أن أولى مزايا الحب . قدرته على منح الآخرين الثقة به والطمأنينة إليه .

وهكذا ، لا يذهب حبك للناس سُدًى . .

فانهض ، وخذ مكانك بين رفاقك العظام .

* * *

ولكن ، كيف تبدأ ، لكى تكون محبا . . ؟ ؟ ؟

طالما قالت لك الوصايا الأخلاقية : أحبب جارك . . أحبب إخوانك . . أحبب والديك . . أحبب عملك . .

وكل هذا حق .

بيد أنني أريد أن أسبق كل هذه الوصايا بوصية أخرى ، هى :
« أحبب نفسك » . . !!

أجل . . أحبب نفسك . . أحببها دوما ، وأحببها كثيرا . . ،
فما لم يجمعك بها حب عظيم ، فلن تكون أبداً محبا ، ولن تكون
قط محبوبا .

قد يبدو هذا الحديث غريبا ، إذا طالما لقنّنا أن العكس هو
الصحيح . . حتى لقد وضع أدبنا الشعبي ، وأمثالنا السائرة حكمة
تقول « من أحب نفسه كرهه رفاقه » . .

لكن الحق ، أن من أحب نفسه ، أحب رفاقه وأحبه رفاقه ؛ . .
لأن الذى يعطى ، هو الذى يملك .. والعاجز عن حب نفسه ، هو
عن حب غيره أشد عجزا .

وصدق أفلاطون حين قال : « إن أشق أنواع الصدقات كافة
هى صداقة المرء لنفسه » .. !

لقد مردنا على اعتبار حب النفس ، والأنانية وجهين لشيء واحد
وهذا ظلم مبين .

فالحب . . ما الحب . . ؟

إنه نشاط بهيج تعبر به الروح عن نفسها ..
إنه رغباتنا فى حالة تشوف وحبور ..
فكيف يتحقق خارجاً عنها . . ؟
كيف نمنحه غيرنا . ونمنعه أنفسنا . . ؟

إننا نحب الأشياء التى نرغبها ، ونجد فى التعلق بها معاناة ممتعة ، وفى الفوز بها سعادة فائقة ..

فنحن إذن . نحب بأنفسنا . . ونحب لأنفسنا . .

فإذا قيل لنا : أحبوا أنفسكم . كان هذا . الاستهلالَ الرشيد ، لكل حب رشيد .

وحبك نفسك . مختلف عن الأنانية اختلافاً كبيراً .

فالأنانية ليست حباً أبداً . إنما هى تعصب ، وانطواء . وغرور . بينما الحب يتضمن دائماً التسامح والإيثار ، والفهم . .

أحبب نفسك . لتستطيع أن تحب الآخرين .

أحبب نفسك ، ولا تمقتها : فالذين يمقتون أنفسهم يتحولون إلى طلقات مقذوفة فى حرب أهلية . !

وما أظنك سائلى : وكيف أحب نفسى . . ؟

فأنت تحبها فعلا . ولست بدعوتى إياك إلى حبها ، أدعوك إلى إيجاد ما ليس موجوداً . . إنما أدعوك إلى تنمية هذا الحب الذى برأ الله عليه كل حى .. وأدعوك إلى ترشيده ورعايته . كما يرعى الأب طفله النضر . . وكما يتعهد البستانى الحاذق بَرَاعِمَ الحديقة وورودها . .

وأول التزاماتك تجاه حبك نفسك ، أن تعرف قيمتك . .

فأنت أيها الصديق ـ إنسان طيب ..

مهما تكن عثراتك وأخطاؤك ، فأنت إنسان طيب ولو لم يكن فيك إلا رغبتك الملحة فى أن تكون أفضل مما أنت . لكفاكَ هذا .

إن عوامل الشر الكامنة فى أنفسنا ، والمنتشرة حولنا ، تطارد

نوازع الخير ، وتتحداها فى إصرار ، ومع هذا ، ففى أعماقنا دائماً نزوع إلى الخير ، وحنين إلى الكمال ، ومحاولات تكبو مرة ، وتنهض مرات .

فلا تكن باخعاً نفسك على عثراتها . .

ناقش نفسك فى أخطائها . ، لكن لا تمتهنها . .

ألوِ زمامها عن السوء . . لكن لا تضطهدها .

إن أكثر الذين يضمرون للناس العداوة والحقد ، إنما يصدرون عن خراب داخلى ، فى أنفسهم التى كرهوها ، واضطهدوها .

فإذا أردت أن يجد الناس منك السلام والصداقة ، فابدأ بأن تمنح نفسك سلاماً وصداقة . ، فإن العالم لن يتلقى منك إلا ما تعكسه عليه حياتك الباطنة ، وسلوكك النفسى .

أما إذا سلبت نفسك راحتها ؛ فقد يرشحك ذلك لمنصب كبير بين الأشقياء الذين يسلبون الدنيا راحتها . . ! !

إن نفسك جديرة بحبك واحترامك . ؛ لأنها ليست ذرة تائهة فى خواء . . بل هى حلقة ثمينة فى سلسلة الكيان الإنسانى . . هى عضلة عاملة من عضلات القلب البشرى .

وإذا وقفت أمام المرآة ، لتصلح هندامك . فاذكر أنك تبصر فى المرآة كائناً سحرياً تمثل فيه كل خصائص النوع الإنسانى بجميع بؤسه ، وجميع عظمته .

إن الحب العظيم الذى كان يعمر قلب محمد ، والمسيح . . وقلب بوذا ، وغاندى ، موجود فيك ومعك .. وإنك لتملك هذا الرصيد . بيد

أنك تجهل وسائل استثماره . ولا تبذل إرادتك جهداً كافياً لبعثه ونشوره

إن أساتذة الحب وروادَه الذين عاشوا ، أو يعيشون فوق ظهر كوكبنا ، لم يفعلوا أكثر من أن تعهدوا زهرته التي غرسها الله بيمينه فى قلب كل إنسان .

تعهدوها بالسقى ، وبالرعاية حتى أعطت خبئها ، وعطرها ، وشذاها

ولقد بدأوا جميعاً بأن أحبوا أنفسهم . .

أجل ـ لقد أحبوا أنفسهم ـ الأنبياء ، والهداة والرواد ، وكل عظيم صادق العظمة من بنى الإنسان . .

بدأوا بحب أنفسهم . حتى إذا حدّثوا الناس فيما بعد عن الحب ودعوهم إليه ، سارت كلماتهم كالمقادير .

الدليل على أن حبهم لأنفسهم كان كبيراً ـ أنهم ندبوها للأعمال الجليلة ، وللجهاد الكبير من أجل خير الانسانية كلها . واختاروا لها أشق وأعظم رسالات الحياة .. وجندوها تجنيداً كاملا لقضية الحق ، والخير ، والرحمة ، والحب .

وهذا ، يمنحنا المفهوم الصحيح لحب النفس .

فحبك لنفسك . لا يعنى الانطواء عليها ، وتدليلها .

لا يعنى تركها ترعى مع الهمل . وتختار من الواجبات والتبعات نفاياتها الهزيلة ..

لا . . ليس ذلك كذلك أبداً . .

وإنما حب النفس إذا كان صادقا ورشيداً ، يدعو صاحبه إلى إيثار الواجبات الثقيلة ، والتبعات الرفيعة ، والتحليق عالياً فى آفاق العظمة .

فليس يحُسبُ نفسه حباً سَوِيا ، من يجعل غاية سعيه ، أن يبحث عن حنطة لِرحاه . .

إنَمَا هو منَ يزداد بوجوده رصيد الحياة ، ومن يترك دنيا الناس يوم يتركها . وقد مَهرَها بتوقيعه ، وضمَّخ هواءها بشذاه ..

فحبك نفسك إذن يعنى .

- أن تعيش معها على وفاق تام .
- أن تجعلها دائماً موضع حفاوتك وتقديرك .
- أن تندبها لأكثر مهام الحياة جلالا وسموا .

فإذا أحببت نفسك . ألفيتها تنطلق وراء الحب فى كل مكان . .

وبغير عناء ، تذوب الثلوج ، وتنماع الحدود التى تفصلك عن الناس .

وتعثر حياتك على شعارها الذى سيكون « جميع الناس إخوتى » ..

وأنت لابد تعلم أن الاحتفاظ بروح السلام والود بينك وبين الناس . مهمة صعبة .. لكن حبك الذى أنضجتَه داخل نفسك ، قادر على أن يجعل الصعب سهلا ، وولاؤك الوثيق للحب ، كضرورة إنسانية ، وقيمة عليا ـ سيجعلك فى كل نزاع ، خير ابنى آدم ، وأزكاهما نفساً .

وسوف تلتقى فى الحياة بناس تعبق منهم كل عطور التفوق الأخلاقى .. وهؤلاء لن تتكلف حبهم ، لأن سموهم ينادى إليهم كل نظير . وهم لا يحملوننا على حبهم فحسب ، بل وعلى حب البشرية التى أنجبتهم ..!

وستلتقى بآخرين ، تَعرفُ منهم وتنكر .. لا يشجعون على حبهم

بل ولا على الاقتراب منهم .. فيهم الكثير من أخلاق المستنقع .. !!

وهؤلاء فرصة لك فاغتنمها .. إنهم هم الذين سيكشفون عن جوهرك ، ويفتحون عينيك على المستوى الذى بلغته نفسك فى حُبها وتَفوُّقها ..

لأنك لا تأتى أمراً غير عادى ، حين تحب من يستحق أن تعطيه حبك .. بيد أن العظمة الوافية هى أن تمنح نفس الحب للذين يعجزون عن حبك .. بل للذين يكافئونك على الحب بالعداوة ..!

* * *

وإذا كان الحب فِطرة ، فالتعبير عنه فن عظيم ..

وعلاقاتك بالناس ، لا يكفى أن تقوم على المجاملة . بل ينبغى أن تضرب جذورها فى الأعماق .. وأن تقوم على الحب الكامل الوثيق .. ولكى تدرك هذا عليك أن تبذل جهوداً دائبة ليزداد ثراؤك الروحى من :

- التسامح
- التفوّق
- التفاؤل

فهذه الثلاث تُشكل أعصاب المحبة ، وشرايينها .

* * *

لابد من التسامح لكى تكون محبا .. ذلك أن الناس صنوف شتّى ولكل منهم شِرْبه ، وطبيعته ، ومنهاجه .. ومهما يذهب أحدنا صاعداً ، فإن له زلات ، وخطايا .. ومهما يذهب أحدنا هابطاً ، فإن له حسنات ، ومزايا ..

فضع فى حسابك دوما أنك تتعامل مع الجزء الأفضل من الناس . ولا تكن قَوِىّ الذاكرة تِجاهَ إساءاتهم ، وكن قويًّا تلقاء مزاياهم وخيرهم ..

لن تجد أبدا ، الانسان الذى ماساء قط .. الإنسان الذى تصفُو مشارِبُه .. لكنك واجد دائماً الانسان الذى ينطوى على خير ، ولو ضئيل ..

فتعرَّفْ إلى هذا الخير فى كل من تَلْتقِى ، وتَعامَلْ مع هذا الخير كثيرا كان أو قليلا . وحاول أن تُنمِّيه بتسامحك وتساميك وحَدبكَ ..

أجل ، ضع عينك على اللمعة البيضاء فى كل فرد تلقاه ، ولا تتبع عَوْرات الناس ، ولا تُركِّز على ضعفهم .. فإن بك مهما تكن قوة نفسك ـ ضعفاً لاتحب أن يركِّز الآخرون عليه ..

إن الفرد الكامل . لا وجود له بين صفوف الناس .

ولكن الكمال كامن فى قدر مشترك من جهودهم جميعاً .. وإذا ساءك من أحدهم أمر ، سيسرك منه أمور ، فوطدْ عزمك على التسامح والفهم ، تظفر بقلوبهم ، وتعاونهم على ماترجو لهم من خير وارتقاء

حين تدفع السيئة بالحسنة ، والتجهم بالتهلُّل ، والأذى بالصفح، فلن يكون لك على ظهر الأرض خصوم . لأن روحك الطيبة ، ستجذبهم طائعين أو مكرهين . وسَيَمسُّهم منها شعاع مقدس . فإذاهم ودُعاةُ مُحبون

أهناك بين أرباح الدنيا كلها ومكاسبها جميعا ، ربح أوفى من هذا أو مكسب أغنى وأبقى .. ؟؟

لقد فعل ذلك «إبراهام لنكولن» مع خصوم له ذوى كيد مزعج ولما عوتب فى تسامحه معهم وقيل له : لقد كان الاجهاز عليهم عملا تقتضيه العدالة . أجاب قائلا :

— وهل فعلتُ غير هذا .. ؟ ؟ لقد أجهزتُ عليهم كأعداء ، حين حولتهم إلى أصدقاء . . !!

وربما تقول : ومع هذا ، فقد انتهت حياة «لنكولن» برصاصة حاقدة.

وأجيبك : نعم ، لقد ذهب «لنكولن» ضحية بغض أهوج ، وكذلك ذهب « غاندى » ومن قبلهما «سقراط» وكثيرون من طرازهم الرفيع .

بيد أن ذلك لا يعنى أن حياتهم كانت باطلة ، وأن سلوكهم المتسامح الودود كان ساذجا ؛ وإنما يعنى أن البشرية لا تزال بحاجة إلى المزيد منهم . . المزيد من مبادئهم وسلوكهم .

أجل .. لكأنَّ قدَرَنا الإنسانى يستحثّنا ، ويقول لنا : انظروا .. إن أساتذة الصفح والحب يسقطون صرعى الضغينة . . إن أكثر الناس بعداً عن مظنة القتل غيلة ، يذهبون غيلة .. ! إن البغضاء يجنّ جنونها كلما أبصرَتْ رائداً جليلا يقود الناس لتحدّيها . وكلما أحست اقتراب نهايتها .. فضاعفوا جهودكم ، وتقدموا صَوْب الوحش الكريه .. إنه يترنح ؛ فأجمعوا أمركم ولا تدَعوهُ يفلت .. !

هذا ما ينبغى أن نفسر به مصرع كل محب يذهب شهيد حبه ، وكل متسامح يذهب شهيد تسامحه ..

على أن هؤلاء فى التحليل النهائى لهم ـ لم يذهبوا ضحايا تسامحهم

وحبهم . . بقدر ماذهبوا ضحايا لمكايد السياسة ومؤامراتها الخبيثة .

أما التسامح والحب اللذان تواصَوْا بهما ، فقد أكسباهم قلوب أفضل الناس حين كانوا بينهم .. وتقديسهم جميعا يوم رحلوا عنهم .

* * *

● ولا بُدّ من التفوّق : لكى تكون محبا .. ذلك أن الحب بذل لا ينتظر العوَض ، وتتويج لحياة صَفّت جناحيها ، وطارت محلقة وراء الخير الأسمى ..

فالمحب ، أبعد الناس عن الحقد ، وأبعدهم من الغضب .

والإنسان المتفوق لا يحقد ، ولا يطول غضبه إذا غضب ..

ذلك أن الحقد عزاء يقدمه الفاشلون إلى أنفسهم العاجزة .. وكل امرىء حقود ، ليس فى حقيقته سوى أنقاض حىّ ، وبقايا جُثمان .. ولن تجد إنسانا مطمئنا إلى نفسه ، يحقد على الآخرين مهما يسبقوه .

والحقد حماقة كبرى ـ لأن الحاقد إنما يضاعف متاعبه وشقاءه ، ويصْلى رُوحَه المقهورة سعيراً ..

فلا تجعل الحاقدين يظفروا بك ، ويضمّوا عضواً جديداً إلى عصابتهم الفانية .

وذلك لا يتطلب منك أن تتجنب الحقد وحسب ..

بل ويقتضيك ألا تقاوم الحقد بحقد مثله ..

مهما تُوجّه إليك سهام الحقد .. تجنّب أن تصير حقودا .. قاومها بثباتك ، وبفضائل نفسك ، وبحياتك الواسعة الكريمة .

هناك حكمة صادقة تقول : « لا تقاتل التِّنين ؛ حتى لا تصير تِنّيناً مثله » .. !!

فلا تحقد على الحقود ، حتى لا تصير حقودا مثله ..

احمد الله إذ جعلك عالى النفس ، كبير القلب .. وإذا ألجأتك أحقاد الآخرين إلى مقاومتها ، فقاومها بأسلوبك أنت . لا بأساليبهم .. وتصرف تصرفَ عظيم ، لا تحمله أخلاق الصغار على أن يصير صغيرا ..

ولكى يَسْلسَ لك هذا الموقف النبيل دوما .. تعوَّد ألاَّ تغضب : وألا يلبث غضبك إلا قليلا

أنا أعلم أن الغضب فى طبيعتنا . ولا بد للناس أن يغضبوا أحياناً . ومن العسير ألا نغضب أبداً . لكن من اليسير ألا نغضب كثيرا .. ومن اليسير كذلك ألا يكون غضبنا أرعنَ مُهتاجا ..

إذا غلبك الغضب ، فاغضب « غَضَبا مفكرا » .

والغضب المفكر ، لا ينقذف من أعصاب خائرة ، ولا من ذمة جائرة .. بل يكون انفعالا . فيه حمية ، لكن له منطق .. فيه انتفاض ، لكن معه كابح .. وفيه ذكاء كريم يدير نفسه حول الأزْمَة ، ويُفسِّرها .. وسرعان ماينتهى الغضب ويذوب .

وَصَف رسول الله عليه السلام الانسان المتفوق المؤمن بأنه بطىء الغضب ، سريع الفَىء »

وإنه لوصف حاذق ، بقدر ماهو صادق

فإذا كان لابد من أن تغضب ، فينبغى ألا يجىء الغضب حتى

تستنفد كل محاولات دفعه .. ثم علينا ألا نسمح له بطول المكث وحط الرحال .

تفوّقْ على حوافز الغضب ، بفلسفة الصفح .

وأطفىء صُراخ الاستفزاز ، بِبرْد الثقة .

وحاول أن تعرف كثيراً ، وعندئذ ستغفر كثيراً ..

كان « الفضيل بن عياض » الصوفى الكبير إذا اعتدى عليه بالسبابه معتد ، رفع كفيه مبتهلا وقال :

— « اللهم إن كان كاذباً فيما رمانى به ، فاغفر له .. وإن كان صادقا ، فاغفر لى » .. !!

سلوك رائع من قدّيس .. ! أليس كذلك .. ؟ ؟

ومع هذا ، فليس القديسون وحدهم يتخذون هذا الموقف الحكيم. بل ويتخذه كل فَطن أريب يضنّ على الغضب بذرّة من أعصابه وسكينة نفسه ..

كان « دزرائيلى » إذا أثاره أحد وأغضبه ، كتب اسمه فى ورقة ، ثم تأملها جيداً ، ثم مزقها ؛ فينتهى غضبه من فوره .. وبهذه العادة الصالحة استنقذ راحة نفسه من براثن الغضب ولفحات الغيظ .

وأنت قادر بالمثابرة والتعود . أن تتفوق على الغضب ليظل قلبك سليما ودودا .

لا تجعل غضبك « نابحا » ، بل اجعله وديعاً ، وعابراً .. وكن سريع الفىء والرضا .

* * *

• ولا بدّ لك من الحماس والتفاؤل ، لكى تكون مُحبا ..

فالحماس ، والتفاؤل عَصب كل حب سديد ، كما أنهما مثوبة المحب يُهديها إلى ذَوِيه .

إن المحب يرى الحياة ببصيرته الثاقبة ، ويضفى عليها من صفاء روحه ما يُنحّى عنها الكآبة . . وهو لا يفعل هذا بخيال فنان . بل بحنكته مجرب وفِطرة إنسان ؛ لأن الحب لا يصير منهجا للنفس والسلوك إلا بعد أن يجتاز الإنسان تجاربَ كُثُراً يُواجه خلالها من أسرار الحياة ، وبواطنِ الأمور ما يجعل التشاؤم خرافة ولغوا . .

فتفاءل كَثيراً ، وتفاءل دائماً إذا أردت أن تحتفظ لحبك بدرجة الحرارة الملائمة واللازمة ، ورَعرِعْ روحك دائماً بالحماس والتطلع ، والشوق .

إنّ التفاؤل والحب يُسقيان بماء واحد . . كلاهما فرح ، وتهلل وثقة ، وطمأنينة .

والحق أن ليس ثمة فى واقع حياتنا وتطوّرِنا ما يغرى بالتشاؤم ، ويصدّ عن التفاؤل . .

ولقد كان المتفائلون فى كل العصور على صواب . . فها نحن أولاء نرى البشرية لا تزداد إلا تقدماً ، وإلا صعوداً . .

فتفاءل ، وتهلل ، ولا تحصر تفاؤلك داخل حدود . .

إذا قيل لك : إن الأرض ستكفُّ عن دورانها حول الشمس ، فقل : لا بد أنها ستغير قانون حركتها ، ولكنها لن تبيد . . ! !

إذا قيل لك : إن الشمس ستختفى غداً . . فقل : لا بد أن شمساً أخرى أكبر منها وأبهى ، ستأخذ مكانها . . ! !

إذا رأيت حرباً عالمية تجعل ما حولك حصيداً . فقل : إن البشرية تتقايأ آخر أقذار أمعائها . . ! !

لا تظن هذا الحديث شعرا ، وإن بدا فى مثل خيال الشعراء . . فالتفاؤل مهما نسرف فيه ينطوى دائماً على صدق تاريخى ، ويستمد صدقاً كبيراً من معالم تطورنا الإنسانى . .

فنحن منذ وُجدنا على الأرض نبصر قوى الحياة باقيةً فى مكانها مثابرة على أداء دورها . .

وكل هذه القوى تجدد باستمرار حيويتها ، وتعوّض ما يسقط منها عبر السفر الطويل ، وتدفع بالحياة الإنسانية إلى غرض لا يبدو أن من سماته التدهور أو الفناء . .

تفاءل دائماً فى حماس وثقة . .

تفاءل لنفسك . ولمن حولك ، وللناس جميعا . .

والآن ، وقد رُضْتَ نفسك على حب نفسك . . وعلى حب نفسك ، وعلى حب غيرك . فوسع دائرة حبك حتى تسع الناس جميعا .

لا تخف أن ينفد حبك ويغيض ، فالحب يزيد بالإنفاق ويموت بالشح والإمساك .

تخطّ بحبك جميع التُّخوم والحدود . .

ابسط ذراعيك ، وعانق البشر جميعا ، ولا تَلوِ زمام قلبك إلاّ عن قوَى الشر التى تعوق تقدم الانسان ، وتُهدد أمْن الحياة ، وتنكّس ميزان العدالة فى الأرض . .

وفيما وراء ذلك ، لا تدع اختلاف الدين ، ولا اختلاف الجنس ، واللون ، ولا اختلاف المذهب والرأى ، يضائل من حبك المفيض . ويصده عن السبيل .

أحبب البشرية الخيرّة كلها . وقل : « هذه أسرتى » . .

ولكن اذكر أنك لن تستطيع أن تجيد حبَّ العالم ، إلا بعد أن تجيد حُب الوطن

فحبك للآخرين البعيدين منك . يبدأ تدريبه هنا ، مع عشيرتك وأهلك .

وكما قلت لك . إنك لن تحب الناس ، حتى تحب نفسك . . أقول لك ـ لنفس الأسباب ـ إنك لن تحب العالم ، حتى تحب الوطن . .

وأيضاً ، لن تحب وطنك حباً خالصاً ـ إلا إذا أحببت العالم حباً خالصاً .

ذلك أنه إذا كانت الأرض التى تعيش فوقها ، ويضم ثراها رفات آبائك ، وتستقبل من بعدك أبناءك وحفدتك . .

إذا كانت هذه الأرض،وطنَك . فالعالَمُ ، هو وطن هذا الوطن

وإذا كان الوطن « أباك . » فالعالَم « جَدُّك » . .

وإذا كنتَ « ابن » وطنك . . فأنت « حفيد » عالَمك .

والحب الإنسانى الذى يقف عند حدود الوطن ، لا يكون فى حقيقته حباً ـ بل تعصباً . .

والحب الذى لايتخطّى الوطن إلى العالم ، لا يكون حباً ، بل جحوداً ، وإفلاساً . . !

وأنت بحاجة دائمة إلى التركيز بقدر أوفى على حب الوطن ،
لا تعصباً ، ولكن رعاية لصرورة الحب ذاتها . . لأن متاعب الحياة ـ
عادة ـ لا تجيء من الناس البعيدين منا بقدر ما تجيء من الذين تجمعنا
وإياهم روابط العيش والعشرة الدانية ، حيث تولد العلاقات المتبادلة
والمباشرة ، كثيراً مما يسر ويسوء .

فما لم نكن مزودين بالفهم ، ومفعمين بالحب ، فإن الميزان سيضطرب
فى أيدينا .

لا تسمح لشيء ما ، أن يكدر صفو حبك وولائك لوطنك . .
ولقومك .

وخذ القدوة من أصحابها العظماء . .

هذا هو محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يضطهده سادة قومه ،
ويخرجونه من وطنه ، فيودعه فى أسى المحب ، ويستقبل مكة قبل
الرحيل قائلا :

« والله إنك لأحبُّ البلاد إلى نفسى ، ولولا أن قومك أخرجونى
منك ، ما خرجت أبدا » . .

يالروعة الولاء . . لكأنه يعتذر إليها ، عن رحيله عنها . . !

وهذا ، هو المسيح ، يقوده إلى الموت ، الذين جاء ليحررهم
من الأغلال ، فيستغفر لهم ، ويبتهل إلى ربه قائلا :

« اغفر لهم يا أبتاه ؛ لأنهم لا يعلمون ما يفعلون » أرأيتم جلال
الحب . . ؟ شهيدٌ يستغفر لقاتله . . ! ! !

وستجد صفوفاً طويلة من ذوى العظمة الصادقة أعطوا أوطانهم كل شىء ، وربما أصابهم من قومهم أذى وضُرّ ، فما أبغضوا الوطن ولا حقدوا على الأهل . .

ذلك لأن الضر مهما يشتد ، عارض سيزول . . والأذى الذى يرجيه بعض الناس ، لا ينبغى أن يحمل وزرَه الوطن . .

والحب الكبير الذى يُعدّ نفسه ليسبح فى المحيطات الواسعة ، يجب أن يتفوق أولا فى سباحة الأنهار . .

والقلب الودود الذى يصافح وُدُّه البشرية بأسرها لا بد أن يكون قد استقر ولاؤه لعشيرته الأقربين .

فليكن حبك صادقا وعميا ، وليكن ميزانه مستقيما .

كن ابن وطنك ، وأخا العالم . .

ولا تقل ماذا يجنى العالم من حبى ، وأنا فرد وحيد . . فكما قلت لك أولا : لستَ وحيدا . . فهناك فى كل مكان من كوكبنا تتكاثر وتنمو الأعداد الهائلة من رفاقك المحبين . .

ومنك ، ومنهم، تتكون إرادة الخير المشتركة التى تتحوّل إلى قدَر إنسانى ـ يريد ، فيكون له ما يريد .

على أن شحذ إحساسك بالإخاء العالمى ، وبالصداقة البشرية ، ضرورى لك ، لتكون إنسانا . .

والحب ، للروح ، كالهواء للرئة . . كلما تلَقّت الرئة هواء نقيا ، قادما من المساحات الواسعة الطلقة ، ازدادت به حيوية وقوة.

فَدَعْ روحك تتنشَّق حُب المساحات الواسعة . .

دَعْ وجدانك يمتــلىءْ بالصداقة لكل شيء طيب لا بين الناس وحدهم . . بل فى كون الله الرحيب .

كان القديس « فرانس » يقول : « أخى الطير » . . .

وإنه بهذا ليُشَارِف حقيقة الوجود .

فالكون كله صديقنا .. الأرض .. الشمس .. القمر .. النجوم .. الناس . . النبات . . التلال . . الأنهار . . الزهور . .

الكون كله . . العالم كله . . معنا ، ولنا .

وإن روحك إذا كانت طيبة ، لن تشبع حبا ، فدعها تصافح كل شيء . . فكل شيء لها صديق .

دعها تحب كل ما وُجد لكى يحبَ ويُؤْلَف .

دعها تُعزز صداقاتها ، وتنمّ مودّاتها .

* * *

إن الحب يتقدم لينشىء عالما جديداً . . عالما مِن خَلْقنا ، ومن روحنا . . فتقدم معه .

لا تقل : كيفَ السبيل ، فأنت هوَ السبيل .

وليس عليك إلا أن تكون محبّاً .

لا تدَع الخوف يُفكِّر لكَ
أو يُشِير عَليكَ
وَطهِّر منه إرادتكَ
وَعِشْ قويّا

لا أعرف عدواً للإنسان ، خرج عليه من غابات الزمن ، وملأ حياته بالشقوة والألم مثل الخوف .

إنه عدُو ضارٍ ، مقوِّض ، ورَبيل . .

ولسوف يحدثوننا عن مزايا الخوف ، باعتباره المهماز الذى دفع عجلة التقدم الإنسانى . .

فخوف البشرية من المرض ، شحذ اهتمامها بالصحة .. وخوفها من الجهل ، حفزها إلى الاهتمام بالعلم .. وخوفها من الحرب ، حشد صفوفها فى جبهة السلام ـ إلى آخر هذه المقابلات .

بيد أن هذه الأمثال لن تخدعنا عن حقيقة الخوف ، ولن نكون من السذاجة بحيث نرضى عنه أو نتخذ منه صديقا .

فهذا النوع من الخوف ـ خوف الجهل ، والمرض ، والحرب . ليس هو الخوف الذى نفرد للحديث عنه هذه الصفحات .

فمخاوف الجماعة الإنسانية المتمثلة فى آفات حياتها ، وحواجز تقدمها ، كجماعة .. هى بالفعل مخاوف نافعة وحافزة .

فالإحساس بها ، إحساس جماعى .. ومقاومتها ، مقاومة جماعية .. والجهود الإنسانية كلها فى تعبئة مستمرة لمناهضتها وتلافيها ، ومن ثمَّ فهى لا تنال من طمأنينتنا ؛ لأن الإجماع الإنسانى على مجاوزتها ، يحمل إلينا الإيناس ويمنحنا حاسة التهكمّ عليها .

أما المخاوف الماحقة ، فهى تلك التى تنتاب الأفراد ، وتنهش أفئدتهم .

تلك التي يحملون وحدهم لأواءَها ومفازعها ، وتجعل منهم مأساة محزنة .

صحيح أن في طبيعتنا الإنسانية قدْراً من الحاجة إلى الخوف ، نحاذر به الأخطار ونتقيها ونتوحى به سلامة خطانا وأمن مصيرنا ..

بيد أن هذه الحاجة يجب أن تلبي بحكمة وعلى أضيق نطاق حتى لا تتحول إلى آفة مهلكة ..

إن في جسومنا مقادير من الدم نحيا بها ونعمل .. لأن الدم هو الحياة ..

فإذا ذهب أحدنا ، وأراد أن يمنح جسمه عافية أكثر ، فيصب في أوردته دماً يزيد عن جسمه . فإنه يعرض نفسه للدمار .. وبالدم الذي هو سبب الحياة ، يفقد الحياة .. ! !

فما تحتاجه نفسك من الحذر ، يجب ألا يجاوز حده .. وعليك أن تفرق دائماً بين الحذر النافع الذي تقتضيه غرائزنا السوية ، والخوف المقلق الذي تفرزه الأوهام وتعقيدات العيش ..

حرر نفسك من الخوف . وكن قويا ..

إن سفير دولة قوية ذات مهابة وقوة ، يبدو في أي بلد غريب يذهب إليه . سيداً مهيبا . ؛ لأنه يحمل معه أينما سار ، هيبة بلاده وجلالها ..

وأنت ـ كائنا ما تكون ـ تمثل نوعك الإنساني كله .. ومعك القدر الذي تريده ـ من قوة هذا النوع وغلبته ..

بل أنت بوصفك إنساناً ، تمثل «الله» في هذا الكوكب .. وبوصفك

فرداً ، فإن معك جزءاً من النفوذ الذى يقتضيه هذا الاستخلاف ، وهذا التمثيل ..

ومهما تكن ظروفك ومقدرتك ؛ فإن فى مكنتك أن تتفوق على كل عوامل الخوف .

فى استطاعتك أن تكون قيصرا ، من غير طغيان قيصر .. وأن تكون هرقلا ، من غير غرور هرقل .

فى استطاعتك أن تواجه الأمواج مبسوط الذراعين ، وأن تبتسم للهول نفسه ، فإذا هو هباء .

إن طبيعتك مزودة بقدر كاف من الطمأنينة والثقة ، فإذا تركته للبوار — فإنك بهذا تبدد رصيداً ثمينا

حرّك قوى الثقة والأمن فى نفسك ، واستعملها بحنكة ودأب ، تتخلص من مخاوفك أولا فأولا ..

ولكن ، ماذا .. ولماذا نخاف ؟؟

سأجاوز بك مرحلة الطفولة ، على الرغم من أنها البئر التى تختبىء فيها معظم جذور مخاوفنا ..

سنجاوزها ، لأن هذا الكتاب ليس بحثاً فى علم النفس ..

وسنبدأ من حيث تبدأ مسئوليتنا عن أنفسنا .. حين يبدأ إحساسنا بالمسئولية ، ورغبتنا فى أن نباشر حقوق نضجنا ..

إنك شاب يافع ، تحمل داخل إهابك نفساً ، أنت عنها راض ، وبها واثق ..

وكثيراً ، ما تتبدّى لنفسك كما لو كنت « دولة ذات سيادة » لها

رايتها ، ولها حدودها ، ولها نفوذها واستقلالها ..

لا بأس أن تكون كذلك .. بل أنت كذلك فعلا ..

ومن هذا التشبيه ، بل من هذا الواقع دعنا نبحث القضية ..

إنك كدولة ذات سيادة ، ترفض العدوان عليك .. ترفض التطفل على أسرارك ومسلكك .. ترفض أى انتقاص من حقوقك . وتذود بمنتهى التصميم عن حرمة ضميرك وروحك .. !

وأنت - كدولة ذات سيادة ، لا تعيش فى كوكب وحدك ؟. بل تعيش على نفس الكوكب الذى تعيش فوقه دول كثيرة ذات سيادة .. ألفان وخمسمائة مليون دولة ، بعدد أفراد البشر ، الذين سيعتبر كل منهم نفسه دولة ذات سيادة ، مثلك تماما .. ! !

والدول ، لكى تزدهر ، وتطمئن ، يجب أن تكون موفورة القوى ويجب قبلا أن تكون على علاقات سليمة وعادلة وطيبة مع الدول الأخرى ..

فعلاقاتك بالناس ، وبالبيئة ، هى مركز الحساسية فى طمأنينتك أو فزعك .. فى سلامتك أو خذلانك .

وعلى الرغم من أن طفولتك تتحكم فيك إلى حد ما .

وعلى الرغم من أن ميراثك من آبائك وأجدادك يقودك إلى حد ما حتى ليكاد يجعل منك - كما قال قائل - « عربة كبيرة يركبها جميع أسلافك » .. !

على الرغم من هذا كله ، فإن مسئولية حياتك منوطة بك وحدك ..

ومن ثـَم، فإن علاقاتك بالناس مسئوليتك وحدك ، وتبعتك وحدك .

والآن . اذكر هذا جيدا .

إن أعظم ما يوفر لك الأمن والطمأنينة ، أن يربطك بالآخرين علاقات سديدة مستقيمة . .

والآخرون هم . . الناس . . الأسرة . . الشارع . . المعهد . . الأصدقاء . . والغرباء . . المجتمع . . الحكومة . . القانون . . العُرف . .

كل فزع يغشانا ، يبدأ انطلاق من هنا ـ من خلل أصاب علاقاتنا بغيرنا . .

وقانون هـــذه العلاقات يمضى فى دقة عجيبة ، تجعل القصاص ضربة لازم .

إن القاتل الذى قتل خفية ، أو السارق الذى سرق خفية يعيشان فى فزع وقلق . .

لماذا ، مع أن أحداً من الناس لم يرهما ، وبالتالى فإنهما بمنجاة من قصاص القانون والناس . . !!

السبب أن علاقاتهم النفسية بالجماعة ، قد اضطربت حين أخلوا بالعلاقات الظاهرة القائمة على العرف والقانون . .

واقتراف العدوان ـ سراً كان أم علانية ـ يعنى أن خطاً من خطوط الاتصال بالناس وبالمجتمع . قد عُطل أو قطع . . ويعنى فى نفس الوقت ، أنك فقدت مركزاً من مراكز حراستك . .

ومن الناس من يتمادى فى الإخلال بعلاقاته الاجتماعية والإنسانية ، وهو بهذا يتلف جميع الخطوط التى تصله بالناس ، وتحمل إليه ثقتهم

وحبهم وحدبهم . وفجأة تحتوشه الوحدة والفزع . ويقول : إنى خائف . .

أجل ـ أنت خائف ـ لا لأن الناس يخوفونك . ولا لأن المجتمع يفزّعك . . بل لأنك أقصيت عن نفسك كل أسباب الأمن والسكينة ، حين أقصيتها عن الجماعة التى تعيش معها بإتلافك كل وسائل الاتصال بها والتلقّى عنها .

فاجعل علاقاتك دائماً فى أحسن تقويم . .

اجعلها عادلة ، مستقيمة ، وقم بكل واجباتها والتزاماتها . .

لا تنتظر أن تعتدى . . ثم تعيش مطمئناً .

إن للحياة قَدَرَها الذى لا يغفل عن القصاص ، ولا يحابى .

واعلم أن كل عدوان تأتيه ، فإنما هو هاتف ينادى إليك الخوف والفزع .

ولست أعنى بالعدوان هنا ـ العدوان المحسوس وحده ـ بل والعدوان النفسى قبلا . . .

فمجرد إضمارك السوء والشر عدوان . . وهو بالتالى إتلاف لعلاقاتك وانحراف بها . .

فطهر نفسك من كل انتواء ردىء . . وعطّر روحك بنوايا الخير ، والقصد ، والحق . تجد الشجاعة مثابرة على صحبتك ، والأمن سريع الخطى إليك . . وتجد روح الشجاعة والثقة . تخف دائماً إلى نجدتك . .

ما أصدق الحكمة التى قالها « كونفشيوس » :

« حياتى ، هى صلاتى ، والذى يعيش عيشة صالحة ، لا يخاف شيئا على الاطلاق » . . .

صحيح أن ثمت ناساً كثيرين ، يسيرون على هذا الصراط ثم لا يسلمون من آفات الحياة . .

أجل . . ولكن آفات الحياة هذه ، لن تقدر أبدا على إخافتهم وتفزيعهم . . إنها لن تزيد عن كونها مضايقات . . مجرد مضايقات .

أفيسوءك أن تضع الحياة فى طريقك بعض مضايقاتها . . ؟ لقد وضعت هذه المضايقات فى طريق جميع الذين اصطفتهم للقيادة ، والعظمة ، فلا تضق بها أبدا . .

* * *

إذا صححت علاقاتك بما حولك ، فالمخاوف كلهن أمان . .

وما دمت تحيا بين الناس حياة عادلة، فسيكون فى قلبك من الشجاعة والأمن ما يمنحك غبطة لا يقدر على شرائها ملء الأرض ذهبا .

ولكن ، هل سينهى ذلك مخاوفك . . ؟ ؟

أجل . سينهى مخاوفك من الناس . .

ولكن تبدأ مخاوف أخرى . .

الخوف من الغيب . . . ! !

خوفك من المستقبل المحجوب . .

خوفك من الله . . .

خوفك من الموت . . .

وهنا ، كما هناك . . لا سبيل للتحرر من هذا الخوف إلا بنفس الوسيلة السالفة . . تصحيح علاقاتك وإضاءتها بنور الفهم والخير . .

لقد صار الناس اليوم يتسلّـون بأصوات الرعد والبرق ، وبمنظر الشهب التي تخترم الفضاء .. بعد أن كانوا قديماً يَهْلَـعون منها ويفزعون .. فلماذا .. ؟

لأنهم بالأمس كانوا يجهلون حقيقتها ، وكانت علاقاتهم بها وبالكون كله ، تستمد من هذا الجهل سلوكها ، فيربطونها بغضب الآلهة ، ويرونها سوط عذاب ..

فلما فهموا ، وعرفوا ، استقامت علاقاتهم بها على جادة المعرفة والفهم ، فذهب الخوف منها إلى منفاه البعيد .

صحح علاقتك بالغيب فإنك لن تفزع منه أبداً ..

● وصحح علاقتك بالمستقبل .. بأن تعمل له فى سداد ..

إن المستقبل . ليس شيئاً غريباً عنك .. إنه امتداد لحاضرك .

فإذا وفرت لعملك اليوم أقصى أسباب السلامة والإجادة ، فإن عملك غداً ـ وهو ما نسميه المستقبل ـ سيكون سليما جيداً ..

صحيح أن دروب الغيب كثيراً ما تفجأ الناس بما لم يكن لهم على بال

لكن لا ريب فى أن أكثر هذه المفاجآت ، تجىء ثمرة أعمال لنا سابقة ، وأخطاء سالفة ..

وقليل من هذه المفاجآت ، يكون كأنما صُنع فى غيبة منا ولكن أى جدوى فى ترقب مثل هذا الغيب ، وحملان هموم أمور لم تقع ، وقد لا تجىء أبداً .

فدع التوقع للحوادث إنه ـ للحى من قبل الممات ممات

* * *

وصحح علاقتك بالله . بأن تحاول الاقتراب من فهم الله ..

أننا نخاف الله : لأنه توعّدنا بعذابه . . . عجباً ، أو لم يعدْنا كذلك برحمته التى وسعت كل شىء .

وهل إذا خوّفنا ليقوّم اعوجاجنا ، يكون معنى هذا أن يحدد الخوف وحده كل علاقتنا به . . ؟ !

إن أباك قد يخوفك . بل قد يقسو عليك لصالحك : فهل لا تعرف من أبيك إلا أنه الرجل الذى يهَشّ عليك بعصاه . ؟ !

أبدا . . فعلاقتك بأبيك تقوم أولا ، ودائماً على أنه أبوك الحانى . . الذى يطعمك ويكسوك . . ويشترى مسرّاتك بالدَّيْن ، وتتلخص مباهج الحياة عنده فى هذه الكلمة : « ابنى » . . . ! !

فإذا خوّفنا الله ، ولوّح لنا بالعقاب ، فليس معناه أنه المنتقم ثم لا شىء . . .

كلا . . إنه الرحمن الرحيم ، السلام ، الغفور ، الودود .

إنه القُدُّوس الذى لا تحركه الغرائز الغاضبة .

إنه الكمال المطلق . .

فأقم علاقتك به سبحانه على الحب ، والرجاء ، والهدى . .

* * *

وصحح علاقتك بالموت، بأن تدرك حقيقته ، وبأن تستعدله بحياة طيبة .

ما الموت إلا انتقال إلى أفضل وأهنأ . . ولكن الأساطير التى أحاطت به ، ووضعته داخل إطار من الشوك ، والأذى ، والهول . . هى المسئولة عن تشويهه وتحريف حقيقته . .

لا أذكر أين قرأت لحكيم عبارة تقول :

ــ حين كنت جنيناً فى الرَّحم ، كنت ناعم البال هادئه . . حتى

إذا حانت ساعة رحيلك عنه إلى الدنيا . قاومت الخروج حتى استعانوا عليك بالقابلة « المولدة » . . . وأخيراً نزلت صارخا ـ مُضمِّنا صراخك هذا ، احتجاجك على الذين أخرجوك من جنتك . .

لكن حين كبرت ، اكتشفت جمال الحياة وتعلقت بها . .

وذات يوم آخر ، ستُدعى إلى الرحيل عنها ، وأنت تجزع سلفا من هذا الرحيل الذى تسميه الموت . .

ألا تتخذ من تجربتك الأولى عظة ودرسا . . .

ألم تغادر حياة الرحم إلى حياة أجمل منها . . ؟

فلماذا لا تكون بما نسميه موتا ، ذاهبا إلى حياة أكثر جمالا . .؟!

إنها صورة عذبة . وإذا كان فيها خيال ، ففيها حقيقة .

فالموت لا يمكن أن يكون شيئاً كريها ، ما دام جميع الناس يعبرون جسره ، ويَكرَعُون كأسه . .

ليس فى الموت سوى ألم الفراق . . فليأخذ مكانه بين مضايقات الحياة . . ولتنَحَّ عن نفسك كل خوف من الموت والرحيل .

* * *

والآن دعنى أحدثك عن خوف آخر ، مُعوِّق، ووبيل ذلك هو: الخوف من المسئولية . .

وهنا أقدم إليك هذه الحكمة الجليلة « افعل ما تهيبه ; فإذا موت الخوف محقق » . . .

أجل : فى نطاق مسئولياتك ـ صغيرها ، وكبيرها . . افعل ما تهيبه ولا تخف .

إن الشجاعة تحمى نفسها من الزلل المحطم ، لأن الشجاعة تنطوى

على الحكمة . . وهذا فارق بينها وبين التهور ، عليك أن تلحظه ،
الشجاعة اقتحام تقوده الحكمة .
أما التهور ، فضجة ، يدفعها النزّق . .
باشر مسئولياتك بشجاعة.. ومارسها فى حدود طاقتك وظروفك،
فليس من حقك أن تحمل مسئولية لا تطيقها ، وتعرضَ نفسك لبلاء لا تطيقه .

ضع عينك دائماً على إمكانياتك فى غير تهيب ، وأيضاً فى غير تهوُّر . . ووازن بين ما تريد أن تعمل ، وما تستطيع أن تعمل .
لا تلق نفسك من حالق ، ورغبة فى أن يقال « يا للبطل » . . . . !
ولا تعامل الحياة كما لو كانت « سركا »،قفزة هنا . .وقفزة هناك ..
بل فكر بذكائك ، وقاوم بذكائك — وقاتل — إذا اضطررت للقتال — بذكائك ..

وأولَى سمات الذكاء هنا ـ ألا تستدرج إلى مسئولية تقوم بين طاقتك وبينها استحالة لا تملك تذليلها . .
كان الرسول عليه السلام يقول :
« لا ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه : قيل : وكيف يذل نفسه يارسول الله » ؟
قال : أن يعرض نفسه لما لا يطيق من العمل ، فيعَرضُ له مالا يطيق من البلاء .
ففى ضوء جميع الظروف ، اختر مسئولياتك ، وإذا اخترتها ،

فقم بكل التزاماتها جاعلا شعارك . حكمة « فيكتور هيجو » :

« إنى أرى . لا أكثر ... وأومن ، لا أقل.. أما العواقب فشيء لايدخل فى حسابى » ..

لاتخف المسئولية أبداً ، فذلك الخوف شر أنواع المخاوف . وأكثرها هدماً لروح التقدم .

إذا كانت هذه المسئولية تتعلق بنفسك ، أم بالناس ، بأمور عادية ، أم بجلائل الأعمال . .

ابذل فيها ـ مهما يكن طرازها ـ كل روحك وجهدك .. فعظمة الروح لاتتجزأ . وهى فى الأعمال الضئيلة . مثلها فى الأعمال الجليلة شامخة بأسلوبها ، وبصدقها .

ثبّت نفسك بالقدوة العظمى التى ضربها للناس خيارهم ..

انظر : هذا رسول الله يحتضن مسئوليته فى رسوخ أشم ويضع لتهديدات قومه ومناوراتهم حدا فاصلا ورادعا من تصميمه ـ ويترك للدنيا أبلغ الدروس فى إيثار الحق ، وتحمل المسئولية . .

« والله . لو وضعوا الشمس فى يمينى . والقمر فى يسارى ، ماتركت هذا الأمر ـ حتى يقضيه الله ، أو أهلك دونه .. » !!

وهذا ، أخوه المسيح .. يبصر أكثرية قومه . تتحول إلى خراف ضالة ـ تحترم الباطل ، وتمتهن الحق ، وتكذب على الله . .

ويحمل مسئولية الموقف كله .. وحيثما كان يسير ، كانت جثث الهداة قائمة على الصلبان التى أقامها لهم الباطل ـ تلفحها الشمس والرمال ، وتهوى عليها الطيور الجارحة الجائعة ..

فلا يفت فى عضده المشهد ولا تستجيب فى نفسه ذرة واحدة إلى دواعى التقهقر .

ويمضى فى ولاء فذ لمسئوليته وعمله ..

لا تقل : هذا محمد ، وهذا المسيح .. ومن يبلغ شأوهما .. ؟!

فهناك أعداد هائلة من الذين لم يجبنوا عن مسئولياتهم ولم يهربوا منها أو يفرطوا فيها ..

هذا « ابن تيمية » يُناهض فى أيامه الذين يحكمون الناس بالظلم ، والذين يملأون عقول الناس بالخرافة ، فيُؤذى ، ويُضطهد ، ويحاط بكل صنوف الأذى ، فلا يلقى مسئولياته من يمينه . بل يتهكم على مضطهديه فيقول :

« ماذا يصنع الأعداء بى ، ؟ إن حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، ونفيى سياحة .. فماذا يصنع الأعداء بى .. » !!

وهذه سيدة ، ترى صرعى العلة يتهاوون كالعهن .. وتلتمع أمام بصيرتها بادرة أمل فى كشف الدواء الناجع .. فتحمل من فورها مسئولية هذه البادرة ، كما لو كانت رسالة تلقى إليها ، ووحيا ينزل عليها . فتثابر ، وتضنى ، وتعيش وزوجها فى « بدروم » منزل .. ويحيق بتجربتها العلمية فشل تلو فشل . ولكنها تثابر ، وتحمل مسئولية لم يكلفها بها سوى ضميرها الحى الباسل ، ويذوى عودها تحت وطأة الفقر ، والسهر ، والمحاولة .. حتى دقت الساعة التى قال الله فيها لها :

ـ الآن خذى ثوابك بغير حساب ـ وتفتحت أمامها مغاليق السر ، ووضعت يدها على « الراديوم » وأخذت مكانها فى الخالدين ، ورفضت

فى إصرار رُهبانى أن تسخر كشفها وجهدها لسماسرة الشقاء حين حاولوا أن تأذن لهم بتحويل الخير الذى كشفته إلى أداة قتـــال تقتل و تبيد ..

أتريد أن نعرف أمّ البشرية هذه . . ؟ ؟

إنها « مدام كورى » ..

* * *

وكان هنا ، فى وطننا هذا .. رجل معه من المال والجاه مالا يجد معه من وقته فراغا ـ أىّ فراغ ـ يملؤه بعمل جاد ، فضلا عن أن يملأه بتضحيات تزهو على معظم ماعرف البشر من تضحيات ..!

ألفى أمته تسام الخسْف والذل ، نخلع جاهه ، وجعله لها دثارا .. وجمع ماله ، وجعله لقضيتها فدْية .. وترك القصر ، ودخل السجن .. ثم قضى فى سبيلها حياته محروما من كل راحة .. بعيداً من كل مرفأ .. حتى مات غريباً لايجد ثمن الدواء .. !!!

أية شجاعة منقطعة النظير ، حمل بها « محمد فريد » مسئولياته ..

هذا الرجل الذى لاتكاد عظمته تترك إلى جوارها مكانا لمنافس أو مُـزاحم .

هذه القدوة الساحقة جداً .. الطاهرة جداً .. ؟!!

* * *

لا تخش شيئاً ما ، إذا دعتك مسئولياتك . وناداك واجبك .

وسواء كانت هذه المسئوليات ، عمـــلا سياسياً ، أو اجتماعياً أو علمياً . . . عملا فى مستوى القمة . أو فى مستوى السفح .. وسواء كنت وزيراً ، أو كاتب أرشيف . .

لا تلق مسئوليتك على الأرض ، خوفا من حق لك قد يضيع ، أو منفعة ترجوها ، أو صداقة تحرص عليها . .

لا تخش رؤساءك فى العمل . إذا اقتضت مسئوليتك العادلة أن تقول لهم : لا . .

فليس فى الحياة أمتع ولا أبهج من « لا » هذه . عندما يدفع بها باطل .. وعندما يتوجه بها الأدنى إلى الأعلى . والأضعف إلى الأقوى .

إن هذه المواقف قبل سواها ، هى التى تؤكد عظمة الحياة وقوتها .

حين مات الإمام « محمد عبده » توجه ناظر الخاصة الخديوية ، إلى شيخ الأزهر يومئذ ـ وكان الشيخ « الشربينى » طالباً منه ألا يشترك هو والعلماء فى جنازة « محمد عبده » الذى كان على خلاف حاد مع الخديو ..

ألقى مبعوث الخديوى بهذه الرغبة السامية إلى الشيخ ، فهزّ الشيخ رأسه وسكت ، واصطبر حتى شرب ضيفه قهوته ، ثم التفت إلى الشيوخ الذين حوله ، وقال : « هيا بنا ـ يا مشايخ ـ فقد حان موعد الجنازة » ..

وفهِق ناظر الخاصة من مفاجأة لم يكن يتوقعها ، فقال لشيخ الأزهر : ألم أبلغك رغبة أفندينا . .

فانتفض الشيخ العظيم قائماً ، ولوّح بيد عزيزة وقال :

« إن الله وحده هو أفندينا » ..

بالله ما أروع هذا ، وما أمجده .. ! !

اجعل كلمة الشيخ « الشربينى » شعاراً لك . . واذكرها إذا دعتك مسئولياتك الأمينة لمخالفة رئيس الله تُحاذره وتخشاه . .

ولا تُتح للأوهام أن تظفر من طمأنينتك وشجاعتك بطائل .

إن الوهم أكذب الظنون ، فأربأ بعقلك أن يكون له عشا ومأوى.

* * *

وبعد ، فهناك قاعدة علمية تقول : ليست الشجاعة «إلغاء الخوف» إنما هى «إخفاء الخوف» .

وإخفاء الخوف هنا ، لا يعنى كتم مظاهره بينما النفس من الداخل تزلزل زلزالها .

وإنما معناه التفوق على كل بواعث الخوف ، وتفسيرها التفسير الذى يكشف لنا حقيقتها ، ويذهب بالكثير من توهم أخطارها . .

ولست بحاجة إلى طبيب نفسى ، ليزرع فى قلبك الشجاعة . وإنما أنت بحاجة إلى الفهم والإرادة .

الفهم الذى يفضح سلطان الخوف المزعوم .

والإرادة التى تضع بديل هذا السلطان الزائف . حكمة وقوة وصلابة .

الفهم ، والإرادة اللذان يجعلانك تبتسم وأنت تُكافح .. واللذان يَهيبان بك أنْ «لا تخف .. فإذا غلبك الخوف ، فامض فى طريقك وأنت خائف» ..

فتقدم . وكن شجاعاً ..

إن الرجل الشجاع لا يتلفت يمنة ، ولا يسرة ، ولا وراء ..

لا يتسوّل العون . ولا يلتمس من غير ذاته شجاعته ذاته ..

إنه ـ مركز الدائرة ـ حيث يكون .

وهو بشجاعته . لايربح الحياة لنفسه وحدها ، بل ويُمكّن الآخرين من أن يربحوها ..

فحيثما يكون القوى الشجاع ، يشعر الذين حوله بالقوة والأمن .
بل إن شجاعته لتخط الطريق أمام الأجيال القادمة التى تندفع وراءه مطمئنة ، تقول لنفسها :

هذا الطريق ـ لا ريب ـ مستقيم . لأن رجلا شجاعا قد سار فيه .
فتقدم وكن شجاعاً ..

إن الذين قادوا المصير الإنسانى نحو مطالعه . كانت الشجاعة ، صفتهم المميزة ..

الذين قاوموا جمود الحياة ، وعجزها . .

الذين شنوا حملاتهم الظافرة ضد كل تأخر ، وانحطاط ، وجهالة . .
الذين هدموا قلاع الطغيان ، ورفعوا ـ عاليا ـ لواء الإنسان
الذين أنزلوا سفينة التقدم الإنسانى إلى البحر ، وهذّبوا الأمواج . وشكَمُوا العواصف . .

كل أولئك ـ كانت ميزاتهم الكبرى ، أنهم تفوّقوا على الخوف وعاشوا شجعانا .

لم يتركوا الخوف يفكرلهم ، ولم يستشيروه فى أمورهم ، لأنهم علموا أن الخوف مستشار أحمق ـ يُنجب المقت والكراهية .

وفى ظل المقت والكراهية ، لا تكون الشجاعة ، بل التهور .
ولا تكون القوة ، بل القسوة .

والقسوة والتهور يلدان بدورهما مخاوف جديدة ، وعجزا أكيدا لأن الذى يقسو على غيره ، يقسو فى نفس الوقت على نفسه ،

وتصاب إرادته باختلال عميق ، وعطب تام ، ويرتد آخر الأمر نهبا لوساوس الهم والخوف .

* * *

هناك حكمة تقول : « لأن تكون فرداً فى جماعة الأسود خير لك من أن تقود النعاج » .

وهذا حق ، لأنك ، وأنت مجرد فرد بين أسود، تواتيك الطمأنينة، وإذا كنت جبانا ، غمرتك عدوى الشجاعة.

وإذا فاجأتك الأخطار ، وجدت من الأسود دروعا قوية ،

فلنذكر تماماً ، أننا نقهر الخوف ، كلما عشنا بين قوم لا يخافون .

من أجل ذلك ، فإنّ الوصية التى تقول لك : لا تَخف . . تقول لك فى نفس الوقت : لا تُخِف . .

إذ بمقدار ماتزجى للناس من أمن ، تتلقى منهم الطمأنينة والأمن .

فلا تكن قط مصدر خوف لغيرك . إذا أردت أن يكون غيرك مصدر طمأنينة لك . .

إن التجربة الإنسانية تؤكد أن أكثر الناس خوفا وجبنا ، هم الجبـــارون الذين يملأون قلوب الناس رعباً .. هم القساة الذين يسلبون الناس أمنهم .

فلا تكن مصدر خوف لجارك .. ولا لزميلك .. ولا لمرءوسك..

لا تخف أولادك ، إذا كنت أبا . .

ولا تخف مرءوسيك ، إذا كنت رئيسا ..

ولا تخف شعبك ، إذا صرت حاكما ..

إن العدالة تعاقب باعثى الرعب ، بأن ترد الرعب إلى أفئدتهم مُضاعَفا . وبأن تحرمهم نعمة الحياة بين قوم أقوياء آمنين . .

فابذل جهدك لكى تزيد من عـــدد الناعمين بالطمأنينة واجعل الناس ، يلتمسوا فى جوارك الدفء ، وفى قلبك الحنان ، وفى أيامك العافية .

لا تُخف ، إذا أردت ألا تخاف ..

ولا تَخَف، إذا أردت أن تحيا..

اسْبَح قَريبًا مِن الشاطِئ
وَارتكِبْ أنْظف الأخطاء
وَلا تُقَايِضْ عَلى الفضيلة بشَئ..

عندما قال « سقراط » لافضيلة بلا معرفة ، كان يسلط أذكى الأضواء على قضية الفضيلة كلها ..

فأنت ، وأنا ، والآخرون ـ إنما نهرب من الفضائل بدافع الجهل أكثر مما نهرب بدافع العجز ..

وجهلنا هنا ، ليس جهلا بنوع الفضيلة .. بل بقيمتها وحقيقتها ..

فأكثرنا يحسب الفضيلة « كبْت الهوى » ..

بينما حقيقتها . أنها التعبير السديد عن أسمَى مناعم الهوى ومباهجه

أكثرنا يظن أنها تضحية بالسعادة ..

بينما هى أوفى وسائل تحقيق السعادة ..

ونحن ـ غالباً ـ بحاجة إلى وقت طويل ، وإلى معاناة أطول : لكى نعرف ..

وسعداء ، هؤلاء الذين يأخذون التجربة الإنسانية من قريب ، وينتفعون بها ، حين تقدَّم إليهم طبقاً شهياً . لم يمسسهم لُغُوب إنضاجه ، ولم تلفحهم نار طهوه . .

سعداء ، لو أنهم يتعظون . .

فهل أنت واحد منهم ، أو هل تحب أن تكون هذا الواحد ..؟؟

هل تريد أن تنعم بهواك من غير أن تفقد نفسك فى لججه ..؟

هل تريد أن تكرع من لذات الحياة ، وتنال من طيباتها حتى ترتوى وتشبع ..؟

هل تريد أن تكون حياتك موكباً مستمراً من المباهج والمسرات..
هل تريد أن تعيش « أبيقوريا » فى أبهج ، وأرحب . وأعلى مستويات « الأبيقورية »...؟
وبعبارة واحدة :
هل تريد أن تعيش فى لذة لاتنتهى ، وشهوة لاتبلى..؟؟
أسمعك تقول : نعم .. فأنا لن أجىء الحياة مرة أخرى .
ومن ثم أريد أن آخذها جميعها . وأحياها .. !!
وأقول لك : حسن هذا .. وإذن فإليك السبيل :
لاتقايض على الفضيلة بشىء ....!!

* * *

وسيكون من حقك أن تسأل : أية فضيلة هذه التى لا أقايض عليها بشىء ..
الفضيلة ، كما أراها .. أم كما يراها غيرى .. ؟؟
الفضيلة ، كما يراها الناس اليوم ، أم الفضيلة كما كان يراها آبائى الأقدمون .. ؟ ؟
وأجيبك : أنها فضائل عصرك ..
وتعال نبدأ الحديث معا ..
أن هذه الصفحات لاتنتظم بحثاً فلسفيا عن الوصايا التى تحملها ، ومن ثم . فلا نريد هنا أن نخوض فى فلسفة الأخلاق .
ولعله لا يكون من الخوض فى فلسفتها ، أن أقول لك :
هناك : « قِيَم » . . وهناك : « فضائل ».
لنقل مثلاً ، إن القيمة تشبه الشمس ..

والفضائل ، تشبه الكواكب التى انقذفت منها ، والتى تدور فى فلكها ..

وكما أن حياتك « البيولوجية » تقوم صلتها المباشرة ، بالأرض لا بالشمس ..

كذلك ، حياتك الأخـــلاقية ، تقوم صلتها المباشرة بالفضائل ، لا بالقيم .

وكما أن الأرض ، هى الواسطة بينك وبين الشمس بكل منافعها ..

فكذلك الفضائل ، هى الواسطة بينك وبين القيم بكل مزاياها .

وكما أن الأرض فى دورانها حول الشمس .. تنشىء الليل والنهار ، والظلمة . والضوء ، والصيف والشتاء ، والربيع والخريف .

كذلك الفضائل ، فى دورانها حول القِيَم . تعطى الحياة ألوانا شتى من السلوك .

فكما أن حركة الأرض ، تجعل النهار الذى تعيشه الآن ـ ليلا عند قوم آخرين .

فإن حركة الفضيلة كذلك ـ تجعل ما هو خير عندك اليوم . شراً عند آخرين .

فالقيم ثابتة . . أو هى فى حركة حول نفسها ، لتحتفظ عن طريق هذه الحركة بثباتها .

والفضائل متحركة ، متغيرة ، متطورة .

فالحق ـ مثلا ـ قيمة . ولكن فضائل الأخذ به مختلفة ـ فبينما يرى قوم ـ أن فضيلة الحق فى الميراث أن يكون للذكر مثل حظ الانثيين ..

يرى آخرون أن فضيلة الحق فى الميراث أن يستوى الذكر والأنثى . .
بينما يرى فريق ثالث ، أن فضيلة هذا الحق ـ ألا ترث المرأة أبدا . .

إن الحق ، كقيمة . . واحد لا يتغير . .

ولكن طرائق الأخذ به وتطبيقه ، وهو ما نسميه فضائل ، يتغير بين عصر ، وعصر . وناس ، وناس . . .

وأحسبك الآن . قد عرفت ما أعنيه بقولى .. فضائل عصرك. . . .

ذلك أن لكل عصر فضائله وتعبيراته ..

وفى الأخلاق بالذات . يطول العصر ـ وينتظم عصوراً وعصوراً..
لأن المراحل الأخلاقية تسيرفى أناة بعيدة المدى ..

فحين نقول فضائل العصر . لا نعنى أن لكل خمسين عاما مثلا فضائل خاصة . . أو أن ثمت تعبيراً أخلاقياً شاملا وعميا يتم كل ثلاثين أو أربعين سنة . .كلا

والتزام فضائل العصر ، أمر ضرورى لحياتك . .

ذلك أن قوام الحياة الإنسانية شيئان ، المعرفة ، والخلق .

والفضيلة ، هى التعبير النهائى عن مطالب العصر الخلقية ..

فأنت مستقيم ،ما دمت تأخذ بفضائل عصرك .. وأنت منحرف بقدر تجنبك هذه الفضائل .

وليس معنى هذا ، أن الرواد الذين ينشقون عل السائد المألوف .
مبشرين بفضائل جديدة أو كاشفين للحياة سبيلا جديدة .

أقول : ليس معنى هذا أن يكون هؤلاء أناسا غير أخلاقيين .ومن ثم فيجب أن يقمعوا ..

كلا .. فالرواد الصادقون جميعاً ، رسل المستقبل إلى الناس . وقد ينادون بأنماط من الحياة تبدوا لجيلهم وعصرهم غير أخلاقية .. بينما هى فى حقيقتها أنماط أخلاقية جديدة ، تتخذ مكانها لتكون سلوك عصور مقبلة جديدة ..

إنهم يكونون أكثر من غيرهم فطنة ، وأنفذ بصيرة ، فيتلقون من السّلف آخر حلقات تطوره الخلق . ويصلونها بسلسلة الاحتياجات الأخلاقية الحديثة البازغة .

كانت مشاركة الفتاة فى الحياة العامة . فى مجتمعنا ـ رذيلة اجتماعية ، وأخلاقية .. بل كان ارتحالها إلى معاهد العالم ومدارسه ، كاشفة الوجه ، مختلطة بالناس فى الطريق ـ رذيلة ، وإثما ..

فما الذى حوّل هذه الرذيلة إلى فضيلة ، أصبح الناس يتسابقون إليها ، ويسلمون بناتهم للعلم ، وللوظائف ، وللحياه فرحين مطمئنين ؟

الذى حدث أن المجتمع تطور ، وتطورت معه فضائله ..

وأنت كعضو فى الجماعة ، ملزم بمسايرة هذا التطور ، وملزم أيضاً باحترام الإجماع المحيط به .. فحين يجمع أهل عصر على فضائل هذا العصر .. فعليك أن تحترم إجماعهم لأن هذا الإجماع يدل على أن الناس لا يزالون بحاجة إلى هذه الفضائل بذاتها ، ويخبرنا أن موعد أنماط جديدة من السلوك ، لم يحن بعد ..

فإذا أحسست فى نفسك إرهاصا بذلك الجديد، فتقدم به كتفكير . لا كسلوك ـ كموضوع تفرضه للبحث . وتدلى فيه بمنطقك وحجتك ..

وفيما وراء هذا ، فليمض سلوكك على الأنماط القائمة ، محترما فضائل عصرك سائراً على هداها . .

هذه ـ فى رأيى ـ أثمن وصية تتلقاها فى حياتك . .

والآن دعنى أعرف لك الفضيلة تعريفاً آخر . .

إن الفضائل هى الصفات النفسية للحياة . .

الحياة نفسها ، لها دستورها الأخلاقى الذى نسير عليه .

الكون كله . . له أخلاقياته التى يُلزم كل وَحْداته باحترامها . .

وأنت تشارك الحياة فى صفاتها النفسية حين تحيا حياة فاضلة .

والإنسان الذى يشارك الحياة فى صفاتها النفسية ، يحقق لنفسه أقصى مباهج اللذة ، والشهوة ، والوجود . . .

ستكون لذاته ، هى اللذات حقا . .

وستكون شهواته هى الشهوات النظيفة البناءة الدافعة إلى أعلى . . .

من أجل هذا قلت لك . إذا أردت أن تظفر بكل نعيم ومتعة ، فلا تقايض على الفضيلة بشىء . .

صحيح أن الفضيلة كبح ، ولكنها كبح للأهواء الفاسدة .

صحيح أنها تضحية باللذائذ..ولكنها اللذائذ المسممة باللوم والندم.

إذا كنت تريد اللذة الزائفة التى تخلف لك الهمّ ، والسّقم ، والزيغ . . فأنا معك فى أن الفضيلة لن تحققها لك . . وستحرمك منها

أما إذا كنت تريد اللذة الباقية . . تلك التى لا يضيرك أن يعرفها الناس عنك . . والتى تترك فى نفسك بهجة ، وفى ضميرك ابتهالا . .

والتى تزيدك اتصالا بالحياة ، واحتراما لها و لنفسك . . . فإن الفضيلة كفيلة بتحقيق كل هذا لك ..

ذات يوم سأل الرسول عليه السلام سائل عن البر والإثم :

فأجابه الرسول :

«البر ما أطمأنت إليه النفس ، ورضى عنه القلب .. والإثم ما حاك فى صدرك ، وخشيت أن يطلع عليه الناس » .

انظر أى معيار حاذق وصادق يرفعه الرسول للسلوك .. !

إنه يربط السعادة بالبر ـ ويربط الشقوة بالإثم .

لأن السعادة قطعاً فى طمأنينة النفس ، وفى شجاعة القلب ، وهما ثمرة الحياة الواضحة النظيفة العائشة فى النور والطهر .

أما قلق النفس ، وضجر الضمير، والحياة التى تطاردها أشباح الخوف ، والندم ، واللوم .. فتلك هى التعاسة ، وذاك هو الشقاء .

فالفضيلة . ليست ألما ولا مشقة ـ بل هى بهجة ورُواء ، إذا أحسنا فهمها ، وإذا لم تتحول بين أيدينا إلى تزمت ، وكبت ، وإرغام .

إن كل فرد منا ، يجىء الحياة مزوّداً بالقدرة على فعل الخير ، وفعل الشر ..

وبذله الجهد لإرجاح كفة الخير وجانبه ، هو الفضيلة .

والفضيلة ، ليست سلعة تباع فى الأسوق ـ إنما هى حياة تصاغ ، وتُشاد ..

إن إدراك الفضيلة ، فن عظيم ، فتعال نبدأ من البداية لنرى ، كيف يمكن إدراكها .

* * *

هناك وصية موجزة لكنها بليغة ـ قالتها أم لابنتها :

« يابنية ، لقد جئتُ بك إلى الوجود .. وهذا أقصى ماأملكه لك .. أما بقية الطريق ، وتحويل وجودك إلى حياة ، فأمره إليك وحدك » ..

لعل من التوفيق أن نبدأ حديثنا بهذه الحكمة ..

فأنت ، وأنا . والآخرون ـ شأننا هو ذاك .

ذات يوم وُلدنا ، واستقبلتنا اللفائف البيض ، لاندرى من الأمر شيئا .. وزحفنا على الأرض ، ثم حبوْنا فوقها .. ونمونا قليلا ، فاستقبلتنا فصول المدرسة ، أطفالا نزهو بالحذاء الجديد يلمع فى القدم وبحقيبة الكراسات ، كالمعصم فى اليد .. ومضينا ننمو رويدا ، ونكبر شيئاً فشيئاً ، وخلال ذلك نلقن من آداب السلوك ، ومن العادات ماهو خير ، وما هو شر .. وحياتنا تنسج خيوطها ، وترسى قواعدها ، دون أن يكون لنا فى هذا كله دور فعال .

وذات يوم آخر ، نجد أنفسنا كبارا مسئولين . نحاسب على الخطأ ، ونطالب بالصواب . وتتقاضانا الحياة سداد « كمبيالات » لم نكتبها ، ولم نُوَقعها ! ونعيش فوق الأرض مانعيش حاملين على كواهلنا كل تبعات وجودنا ، ومسئولياته ..

هذه هى مأساتنا .. ولكنها فى نفس الوقت عظمتنا وامتيازنا .

لأن الذى يخلق من فوضى حياته نظاما .. ومن عجزها تفوقا وإقداما .. والذى يرتقى بجهده من السفح المتهدم . إلى القمة الشمّاء ، لا يمكن إلا أن يكون عظيما ..

ترى ماذا نصنع ـ فى مجال الفضيلة والخلق ـ لكى نبلغ هذا الشأو ، ونظفر بذلك الامتياز..؟؟

المسألة فى غاية اليسر ، سيّما حين تبدأ فى باكورة العمر ، والزمام كله يومئذ فى قبضتك .

فابدأ بأن تحدد موقفك من الشر ، ومن الخطأ ..

أنت إنسان . لا إله ..

من الطين خلقت ، ورواسب الغابة ، لم يذهب بها جميعا بُعد الشقة وتطاول الزمان .

ولو شاء الله لأسكن الأرض ملائكة لا يأثمون .

ولكنه اختار الإنسان ، وهو به أعلم .

ويا له من دور جليل ، هذا الذى أنت واحد من الذين اختارهم الله لأدائه .

أتعرف ما هو . . ؟

تحويل الشر إلى خير . . تحويل الرذيلة إلى فضيلة . . تحويل المأساة إلى بهجة . . تحويل التناقض إلى وحدة . . تحويل الحياة « الدنيا » إلى حياة « أخرى » . . . !

من أجل هذا خلقت من طين .. فيك صفاء الماء ، وغبرة التراب .

ومن السفح الهابط ، دُعيت لتصعد القمة العالية .. ومن تخشاش طباعك ، وفوضى بيئتك ، أُمرْتَ أن تخلق السمو ، والجمال ، والنظام ..

ولقد فعلت .. وستظل تفعل ..

وأنت كفرد ، تخضع لعوامل كثيرة ، تؤثر فى سلوكك وتقود حياتك .

وفى الحياة تلقاك شرور تراودك .. وأخطاء تعرض نفسها عليك ..

ولنقل إن الشر ، هو الخطأ ، فى حالة تضخم واستمرار .. أما الخطأ ، فهو مَيْل عن الجادة غير بعيد ، وليس له ضراوة ولا إصرار ..

سمة الشـر المميزة ، أنه عـدوان ، وأذى
وسمة الخطأ الغـالبة ، أنه زلـَّة كـريم

* * *

أما الشر ، فاجتهد أن تتركه كله ، فليس وراءه خير أبدا .

ولن يكون حصاده سوى العاصفة .

لا تقترف شرا ، فإن الديان يقظان ، وكما تدين تُدان ..

* * *

أما الخطأ ، فلا مهرب لإنسان من الخطأ ..

من أجل هذا ، لا أقول لك : تجنب الأخطاء .. ، لأن هذا يشبه أن أقول لك : تجنب الحياة ..

إن الله يخاطب الناس فيقول : « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنـَّة فى بطون أمهاتكم ؛ فلا تزكوا أنفسكم » ..

فأنت يا ابن الأرض ، ويا حامل تركة الآباء والأجداد فى طبيعتك الخطأ ..

وذلك لا يعنى أن تستسلم للأخطاء .. أو توغل فيها بغير حساب .

إذن ماذا عليك أن تفعل .. ؟

هو ذا .. « ارتكب أنظف الأخطاء » . .

اجعل هذه العبارة إحدى بل أهم قواعد سلوكك تنج من كثير عما يسوءك التورط فيه .

إذا كان لابد من الخطأ ، فلتكن أخطاؤك كريمة ، نظيفة ، فإن الأخطاء النظيفة تحمل إمكانية التحوّل والتعلية .

ولا أحسبك بحاجة إلى أن أبين لك : ما هو الخطأ النظيف فالحلال بيِّن ، والحرام بين ..

ولكن إذا كان فى ضرب الأمثلة ما يفيدك ؛ فدعنى أضرب لك هذا المثال ..

لنفترض أنْ قد شَجَرَ بينك وبين آخر خلاف . . تطور إلى رفع الصوت ، وحدة المراء . فتساببتما ، وتشاتمتما ..

إن تبادل السباب والشتم . خطأ أخلاقى ..

لكن هذا الخطأ ، يمكن أن يكون نظيفا . ، ويمكن أن يكون غير نظيف .

تستطيع — إذا غُلبت على أمرك فى هذا الخطأ — أن تمارسه برفق وترفع ..

فإذا اخترت للتعبير عن غضبك ، كلمات مهذبة ، حولت خطأك الذى هو الغضب ، إلى خطأ نظيف مترفع .

أما إذا استعملت الكلمات السوقية ، وتناولت الآباء .والأمهات، فقد ارتكبت خطأ هابطاً . . خطأ غير نظيف ..

وعلى هذا المثال ، تستطيع أن تقيس . وتستطيع أن تتبين طبيعة الخطأ النظيف ، سواء فى آداب السلوك،أو فى نشاط الغرائز،والجنس..

إن العناية باختيار أخطائك ، وتهذيب مستواها ، آية من آيات النمو النفسى القويم .

لأنه إذا كان كل بنى آدم خطـّاء ، كما قال رسول الله . . فإن خيار بنى آدم هم الذين تكون أخطاؤهم كريمة نظيفة . . وهم بالتالى الذين لا يصرون على أخطائهم ؛ لأن آية الخطأ النظيف ، أنه قصدٌ عابر . . وليس « نزيفاً » مستمرا . . .

مرة أخرى : لا أقول لك : تجنب الخطأ . . لأن هذه النصيحة خيالية ، بقدر ما هى متهافتة . .

إنك لا تقول لمن تخاف عليه وطأة الهواء : احذر التنفس . . !

ولكنك تقول له : تنفس نقى الهواء . .

كذلك من تحاذر عليه وطأة الخطأ . لا تقل له : احذر الخطأ .

ولكن قل له : « مارس أنظف الأخطاء » . .

وليس معنى هذا ـ طبعا ـ أن تضيف إلى هواياتك . هواية جمع الأخطاء النظيفة . . ! !

ولكن معناه ، أنه حين تغلب على أمرك ، وتخطىء أى خطأ أخلاقى ، فمارس خطأك هذا ، فى أعلى مستوياته . . وفى آنق حالاته.

وذلك كله، تظفرُك به العادات الصالحة حين تريد .

ضع فى اعتبارك دائماً ، أن تكون أخطاؤك أنيقة ، نظيفة . . وتعوّد هذا دوما .

وحين تتكون لديك هذه العادة ، سيبهرك أن تتحول الرذائل بين يديك إلى فضائل . . والمساوئ إلى محاسن . . وستلقى نفسك إنسانا تسمو سيئاته على حسنات غيره ، وتزهو أخطاؤه النظيفة ، على كثير من الفضائل الزائفة . .

* * *

قال فليسوف فرنسى : « الذين يجعلون الرذيلة محبوبة ، خير من الذين يلوثون الفضيلة » . .

فمن هم أولئك الذين يجعلون الرذيلة محبوبة ، إذا جاز أن تكون الرذيلة محبوبة .. ؟؟

إنهم الذين لا يُصِرّون عليها ، ولا يسعون إليها .. وإذا غلبوا على أمرهم فيها ، حوّلوها إلى خطأ نظيف ، لا يخلف وراءه مرارة الندم ولا ضراوة الإدمان ..

إنك إنسان ، له شهواته ، ورغائبه .. ومعه أيضاً إرادته التى تقهر الصعاب ، وتصنع المعجزات .

والأسلوب الذى تستعمل به إرادتك لتوجيه حياتك الأخلاقية ، هو الذى يحدد نصيبك من النجاح أو الإخفاق ..

فالكبت ، والقهر ، والإرغام ـ لن تفيدك شيئا .. بل ستدمر حياتك تدميراً .

إن شهوات الحياة الإنسانية ، بحر ـ لن تستطيع أن تتجنب السباحة فيه ولكنك تستطيع أن تسبح قريباً من الشاطئ . .

وحياتنا ، عالم حافل بالشهوات والرغبات التى لن تقدر على تجنبها .
ولكنك قادر على أن تختار أشرفها ، وأنظفها ، وأسماها ..

وسوف تنجح نجاحاً كبيراً فى حياتك الخلقية إذا توخيت القصد والاعتدال .. فلا تَـمِـل كل الميل إلى الإحجام ، ولا تملْ كل الميل إلى الإفراط .

لاتجعل القهر والإرغام ، سبيلك إلى تقويم نفسك .. بل اجعل الحيلة ، والذكاء ، هما السبيل ..

وفى الحياة الأخلاقية بالذات ، تكون الطفرة ، والتزمت ، ضلالا وجهدا ضائعاً ..

أما الخطوات الوئيدة الثابتة .. والتطور الهادىء المستأنى ، فهما خير وأجدى .

إنك تستطيع أن تقفز إلى أعلى فى الهواء .. ولكنك سترتدّ إلى الأرض بعد ثوان سريعة ..!

* * *

هناك قاعدة علمية تقول : « لكل فعل رد فعل ، مساوٍ له فى القدر مضادٌّ له فى الاتجاه .. »

إن هذه القاعدة ، تصدق أخلاقيا ، بنفس المستوى الذى تصدق فيه علميا ..

فإذا أخذت نفسك إلى الفضيلة بغير هوادة ـ غافلتك ذات يوم ،

وانقذفت صوب الرذيلة بلا هوادة كذلك ..، بنفس القوة .. وضد الاتجاه ..

فاحذر قمع نفسك ..

إن الرسول عليه السلام وهو صاحب دين من شأنه أن يطالب بمزيد من الفضيلة والتقوى .. كان دائم التذكير بهذه الوصاة :

« إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فإن المنبتّ ، لا أرضا قطع ، ولا ظهراً أبقى ... »

الْعب .. وامرح .. وتهلل .. واعلم أن أدنى مستوياتك الخلقية ، تتضمن أعلى ما ترجو لنفسك من مستويات ..

تماما، كما تتضمن البذرة الشجرة .. وكما يكمُن فى الطفل الرجل ..

ولكن ، كما يظهر الرجل من الطفل ، والشجرة من الثمرة عن طريق التطور ، لا الطفرة .. والمحاولة ، لا القسر .. ؛ فكذلك مستواك الأعلى ، ينبثق من المستوى الأدنى شيئاً فشيئاً . إذا أنضجته على تجارب هادئة ، معتدلة .. لا محاولات حادة رعناء .

هناك ناس يتوسلون للفضيلة ، باضطهاد غرائزهم ، وقهر نوازعهم .. وردم كل منابع الطاقة فى طبيعتهم الإنسانية ..

هذا خطأ ، وزيغ ..

فنحن حين نريد الظفر بفاكهة أجود مذاقا ، وأبهى عبيراً .. لا نقتلع شجرتها من الأرض .. إنما نطعمها بالنوع الأجود الذى نريد شبيهه ، فتستجيب الشجرة ، وتعطى من الثمر ما نريد ..

عامل نفسك هكذا ..

لا تحاول أن تقتلع غرائزك ، أو تردم منابعها .. فإنك بهذا تعطل حياتك ، وتتعجل فناءها الأخلاق والمادى معا .

* * *

وشر أعداء تفوقك الأخلاق ، اجترار الندم ، وإدمان اللوم .

فلا تنفق قواك البناءة فى إدمان الندم على ما تورطت فيه من خطأ ..

لا تظن أنك إذا زللت . أو حتى واقعت خطأ فادحا ، أنك انتهيت .

هيهات لمثلك أن ينتهى ..

إن فى داخلك من القوى النفسية المذخورة ، ما لا يؤذن بانتهاء أبدا . ومعك من القدرة على إصلاح الخطأ ، والتفوق على الزلل ، ما لا ينبغى معه يأس أو ندامة .

إنك واحد من النوع الذى اتخذه الله خليفة .. النوع الذى جعله الله أستاذ هذا الكوكب ، ومهندسه ، ومُفَجِّر الحياة فيه .

من أجل هذا ، أمدك بقوى تحطم كل يأس .. وطاقات ، تجاوز كل عجز .

والقدرة التى يحقق بها نوعك الإنسانى هذه الانتصارات العلمية الباهرة .. معه مثلها أو أكثر منها ، ليحقق بها انتصارات أخلاقية أبعد مَنالا ، وشأوا ..

أنت فرد .. اسمك أحمد ، أو على ..

ولكن خصائص البشرية كلها ـ يا هذا الفرد ـ تحتشد فيك بكل هيمنتها وإعجازها .

ومن الكهوف والأقبية ، طالما انبعث أفراد مثلك أو أسوأ منك ظروفا . . كانوا خطائين ، فتحولوا إلى قديسين .. أو كانوا هملا ، فتحولوا إلى قادة ..

حرّك إرادة الفضيلة فيك ، لا أكثر ..

والو زمام نفسك عن الدنايا ، لا أقل ..

ودَع العواقب بعد هذا تقبل ، فلن تكون إلا تفوقا ، وخيراً ، ونهوضاً ..

لا تجلد نفسك بسياط الندم قط ، ولا تعذب ضميرك باجترار اللوم أبدا .

لكن استعرض فى هدوء ، الظروف التى تغريك بالخطأ الأخلاقى وناقشها ، ثم حاول أن تعرف بديلها من الظروف الأمثل والأفضل .

وافعل هذا ، فى تمهل ، واطمئنان . وأناة .

إن الأرض لن ترحل من هنا . . وإن لك مع كل عسرٍ يسرًا ، ومع كل غد أملا .

لا تدع قواك تتحطم تحت وطأة الشعور الضارى بالإثم وبالندم .

فإنك وأنت « حطام » لا تستطيع استرداد الأرض التى فقدتها ..

لكنك وأنت « جميع » قادر على استردادها ، وامتلاك سواها .

يقول « تولستوى » :

« مما يفزع المرء له أننا كالأطفال . نفك أجزاء الساعة ، ونجعل منها ألعوبة . ثم ندهش بعد هذا ؛ لأن الساعة لا تدور .. !! »

قال تولستوى هذه العبارة فى معرض تأملاته الدينية ، وأنا

أنصحك أن تجعلها ضياء تأملاتك الأخلاقية أيضا ..

فنحن نصنع بأنفسنا هذا تماما ، حين نحطمها بالندم ، ونحلل تماسكها بالكبت الأعمى ، أو بالإفراط الأهوج ، ونبعثر قواها فى اجترار الشعور بالخطيئة ، وبالهزيمة .. ثم ننتظر منها بعد هذا أن تعمل ، وتدور ... !!

احتفظ بطمأنينة نفسك وثباتها ، وتماسك قواها . إذا أردت للساعة أن تدور .

* * *

إن مسئوليتك الأخلاقية ، تتمثل فى تقديرك لوقع الخطأ ،وقدرتك على إصلاحه .. وإدراكك لقيمة الفضيلة وسعيك لإحرازها ..

أما موقفك من الخطأ ، تقديراً له ، وقدرة عليه ، ففى السطور السالفة حظ من التبيان أحسبه كافيا ..

أما الفضيلة، فهى إذ تبدأ من الإدراك السديد لفلسفة الخطأ وحقيقته . فإنها تمضى بعد ذلك معتمدة على ذكاء التربية ، وذكاء الإرادة ..

لعل حكمة المسيح القائلة « لن تدخلوا ملكوت الله حتى تولدوا من فوق » ..

لعلها كانت تشير ـ فيا تشير ـ إلى هذه الحقيقة الجلية ، حقيقة أن معظمنا تصاغ حياتهم فى الطفولة على غرار من التربية لم يختاروه .. وأن عليهم ـ كائنا ما كان هذا الغرار ـ أن يعيدوا تربية أنفسهم وتكوينها . إذا كان التوفيق قد جانب تربيتهم الأولى .. وأن يضاعفوا من فرص

التفوق لتلك التربية إذا كانت قد بدأت صحيحة سوية .

فأنت الآن فى سنك الناضجة . مسئول عن ولادة جديدة لنفسك:

واعلم أن لله عبادا إذا أرادوا ،أراد ..

فاحمل إرادتك ، وزودها بالذكاء ، وحسن التقدير وامض فى طريق الخير والفضيلة .

إنك حين تذهب لشراء ثوب لك أو جورب ، تنتقى أجود الأصناف التى تسمح بها قدرتك الشرائية ..

فإذا ذهبت لتشترى لك حياة .. أفلا تختار أعظم وأبهى ماتسمح به قدرتك الإنسانية ..

ألا فاعلم أن قدرتك بعيدة الحدود جداً ..

واعلم أن الحياة ، لاتشترى جاهزة ، وإنما تنسج ، وتصاغ،وتبنى: ووسيلة هذا . الإرادة الذكية ..

وإرادة الفضيلة ، تعنى المثابرة على الأعمال الفاضلة ..

إن حياتك الخلقية ، ليست أكثر من مجموعة من المواقف السليمة حولتها المثابرة إلى عادة ، فأصبحت خلقا وسلوكا ..

اذكر هذا جيداً ..

الأخلاق الكريمة ، هى مجموعة من المواقف السليمة ، يثابر عليها صاحبها حتى تصير عادة ..

فاشحذ اهتمامك باختيار هذه المواقف ، والتزامها ..

من أشدها ضآلة .. إلى أنفسها قيمة .

من الطريقة التى تعامل بها خادمك .. إلى الأسلوب الذى تحترم

به وتعـــامل رئيس دولتك .

من الطريقة التى تشترى بها « قلم رصاص » من بائع متجول ..
إلى الطريقة التى تهيء بها نفسك لنيل منصب كبير ..

موقفك من نفسك فى خلوتك ..

موقفك من أسرتك ..

موقفك من زملائك فى العمل ، وأصدقائك فى الحياة ..

موقفك ممن تعرف .. وممن لا تعرف ..

موقفك من الذين تحب .. ومن الذين تكره ..

موقفك من المحسن إليك .. ومن المسيء ..

طريقتك حين تبتسم ، وحين تضحك ، وحين تعبس ..

حين تتحدث ، وحين تصمت ، وحين تصغى ..

حين تعطى ، وحين تأخذ ..

حين تمشى ، وحين تقعد ..

حين ترضى ، وحين تغضب ..

موقفك من مظالم تقدر على دفعها ، ومن ظالم ، تقدر على زجره :

موقفك من آلام الناس ، ومن آمالهم ..

من فضائلهم .. ومن أخطائهم ..

موقفك من القضايا العامة ـ والواجبات العامة .

كل هذه المواقف تشكل حياتك الأخلاقية ، بل وحياتك كلها .

* * *

واذكر ، وأنت تتخذ هذه المواقف ، لتنسج منها فضائلك .

اذكر ، وتوخّ ، واجعل غرض سعيك الأخلاق ، أن تكون فاضلا .. لا « محترف » فضيلة ..

هناك فارق بين إنسان « أمين » وإنسان « يتحلى » بفضيلة الامانة .

الأول : حقّق نموّه النفسى كل أغراضه الفاضلة . .

والثانى : لا يزال يحاول .

فى كلا الاثنين خير لاريب ، ولكن الأول أكثر استقرارا على صراط الفضيلة . .

إذا قلبت النظر فيما حولك . . ستجد ناسا كانوا صادقين أو شجعانا ، أو أمناء .

وذات يوم ظهرت عليهم الأعراض المضادة .. فإذا الصادق كاذبا . . وإذا الشجاع جبانا .. وإذا الأمين خائنا . .

ماذا حدث . . ؟

انهم لم يكونوا يراءون الناس بفضائلهم الأولى .. بل كانوا صادقين فى الأخذ بها .. فماذا جرى .. ؟؟

لماذا هجروا فضائلهم ، وتحوّلوا عنها . . ؟

السبب : أنهم لم يضَعوا فى اعتبارهم أن يكونوا فضلاء ..

بل جعلوا غاية سعيهم أن يفعلوا الفضائل . .

وشتّان بين من يُكرس جهده الخلقى ليكون فاضلا .. ومن يكتفى بأن يتحلى بالفضائل بعض الوقت ..

إن فعل الفضائل درجة من درجات النمو الخلقى .. لكنه ليس هو النمو ذاته ، ولا النمو كله.

وفعل الفضائل . بمثابة طلاء البناء ، لكنْ ليس هو البناء ذاته .

إن الذى ينقلك من محترف فضيلة ، إلى فاضل فعلا . هى المثابرة الذكية المواصلة .

وهو أن تضع فى اعتبارك انك تنشىء من نفسك وطنا صالحا لمعالى الأمور . وفضائل الخلق .

وهو أن تبلغ المستوى الذى لاتكون فيه فاضلا ، لأنك تفعل الفضائل .. بل تفعل الفضائل ؛ لأنك فاضل ..!!

الإنسان الفاضل ، إنسان اجتـــاز دور المحاولة ، واستقر فى مقام الرسوخ .

وفضائله ، لم تعد أشياء منفصله عنه ـ يرتديها متى شاء ، ويخلعها متى شاء .. لأنه لايمارس الفضيلة ممارسة هُـواة .

إنما « الفضيلة » حياته .. وحياته هى صَلاته ..

ومن ثم ، لايستطيع هو ، ولا تستطيع قوة مهما عظمت ، أن تحول بينه وبين فضائله .

لن تستطيع كل مغريات الأرض ، أن تقلب الأمين خائنا .. والصادق كاذبا .. إذا كان قد جاوز مرحلة اكتساب الفضيلة إلى مرحلة الإنسان الفاضل فعلا ..

فاجعل غاية مساعيك الخلقية أن تكون « فاضلا » يسير على صراط الفضيلة بقدمين ثابتتين ، فذلك هو ضمانك الوحيد ضد النكسة .. كما أنه « جواز مرورك » الوحيد إلى سماوات العظمة ..

ولا تخلط بين هذا السمو ، وبين الخطأ ..

أعني لا تظن أنك لن تبلغ منزلة « الإنسان الفاضل » كما صورناها إلا إذا برئت من كل خطأ ..

لا ...

ذلك هو « الملاك الفاضل » الذي لا يخطىء ، لأنه لا يقدر على الخطأ :

ونحن نتحدث عن « الإنسان » لا على « الملاك » ..

فاذكر أنك قادر على بلوغ قمة الفضيلة هذه ، مع وجود بعض الأخطاء الخلقية الهينة التي يفصدها سلوكك الرفيع بين الحين ، والحين.

* * *

إن العلامة الصحيحة المميزة للمستوى العالى للفضيلة ، لا تتمثل إذن فى العصمة من الزلل ..

إنما تتمثل فى مساعدة نفسك ، لتصير إنسانا فاضلا .

ومساعدة الآخرين ليكونوا فضلاء ..

فآية مجاورتك المستويات العادية للفضيلة ..

آية تفوقك ، وبلوغك درجة « الإنسان الفاضل » هى أن تساعد الآخرين على السير فى ذات الطريق .. هى أن تشارك فى إيجاد الظروف التى تيسر للآخرين أن يكونوا مثلك ..

وهذا يقتضيك ألا تسارع إلى إدانتهم ..

يقتضيك ألا تزهو عليهم بفضائلك أو تثنى عطفك عنهم لأخطائهم ..

يقتضيك ، أن تسير معهم وفق الحكمة القائلة .. « من عرف كثيراً ، غفر كثيرا » ..

يقتضيك أن يكون حديثك عن الناس ، وإليهم ، بلسان دافىء ..

لا تشغل نفسك بتعقب أخطائهم ، لأنك مشغول بتهيئة الأسباب التى تجعلهم يتقدمون ؛ ويتفوقون .

وفى نفس الوقت ، لا تخدعهم عن أنفسهم ؛ ولا تجاملهم فى أخطائهم ، ولا تسكت عما يلحقونه بأنفسهم من سوء ..

بل تقول لهم الكلمة الطيبة التى ينتظرونها لتقوم اعوجاجهم ..

تقولها فى حنان ، وحرص ، وبر ، حتى تبلغ من أنفسهم مكمن العلة فتزيلها . ، ومفتاح البعث فتديره . . !

* * *

لا تطلب على الفضيلة أجرا . .

إذا كنت تبنى حياتك بناء أخلاقيا . فاذكر دائماً أن الفضيلة غاية لا وسيلة . .

واذكر أنك تجاهد فى سبيل امتلاكها ، لا لتقايض عليها بشىء أثمن منها . . ولا لتكسب بها بين الناس شهرة أو مالا . .

ولكن لتربح حياتك نفسها . .

اذكر أنه ليس فى حياة الناس كلها ما يمكن أن يكون ثمنا للفضيلة . سوى الفضيلة ذاتها ..

إننا نحلى الأشياء بالسكر .. ولكن بم نحلى « السكر » نفسه ..؟؟

لا بشىء . . إن السكر حلاوى .نفسه . . . ! !

الفضيلة كذلك ، مثوبة نفسها ، .

وحسبك جزاء عليها ، توفيقك إليها . .

هناك حكمة جزيلة تقول :

« أكثر الناس جهلا بالخير ، أعلاهم صوتا فى طلب الأجر عليه » .

إذا فعلت الفضيلة ، ابتغاء شيء سواها ، خسرتها . .

وإذا فعلتها ابتغاء ذاتها ربحتها .

على أن ثواب الفضيلة الذى ترجوه من الناس ،مدركك لا محالة . .

وحتى إذا قسم لك أن تكون فاضلا بين قوم يجحدون الخير ، ويسخرون من كل سمو يعجزهم نواله . فسيكون هذا الجحود منطويا على أعظم مثوبة . .

لأن معناه ، أنك ضياء رفعه الله وسط الظلمة . . وقدوة هيأها الله للمتخلفين .

إن الفضيلة ربح لا يكتنفه خسران أبدا فامض إليها سعيدا . .

- لا تضق بالخطأ . . واجتهد أن يكون خطؤك نظيفا . .
- إذا لم تستطع إصلاح كل أخطائك، فإنك تستطيع إصلاح بعضها . . ابدأ بإصلاح ما تستطيع .
- لا تضطهد غرائزك ، ولا تكبت حاجات نفسك . بل طعمها بنوازع الاستقامة والخير ، ودعها تعمل . .
- اكتشف ما معك من فضائل ، وركز عليها . وتعهد ضعيفها حتى ينمو . واعلم أن كل فضيلة تنميها وتكتسبها ، إنما تشكل حلقة باهرة فى سلسلة انتصاراتك على ضعفك . .
- تجنب الطفرة ، ودع حياتك الأخلاقية . تكتشف نفسها ، وتحقق ذاتها خلال نمو طبيعى . ولا تتطرف فى طلب الفضيلة تطرفا يردك ـ مكرها ـ الى الاتجاه المضاد . .
- ابحث عن المواقف السليمة دائماً ، والتزمها . .

- اجعل غرضك الأخلاق أن تكون « فاضلا » ، لا « محترف » فضيلة . .
- تصرّف دائماً ، كما لو كان سلوكك ، سيصير طريقا عاما ، لمن معك ، والأجيال القادمة بعدك .
- لا تنتظر على الفضيلة مثوبة ، خيراً من الفضيلة نفسها .

والآن . . أسأل الله لى ولك توفيقا وسداداً . .

وإلى الوصية الرابعة .

احْمِلْ رُوحَ الرُّوَّاد
وَابْحَثْ عَنِ الدُّرُوبِ غَيْرِ المَطْرُوقَة
وَاجْعَلْ مَناطَ سَعْيِك :
« مالَمْ يَفْعَلْهُ مِنْ قَبْلُ أَحَد »

إذا أخذت بالوصية الأولى ، فصرت محبا ودودا . .

وعملت بالثانية ، فنبذت الخوف ، ونهضت شجاعا قويا .

وظفرت بالثالثة ، فعشت عيشة فاضلة .

فأنت الآن مهيأ لجلائل الأمور ، فاستقبلها بعزم . .

« إن العظائم كفؤُها العظماء » . . !

وإليك إذن الوصية الرابعة :

أن تحمل روح الرواد . .

وتبحث عن الدروب التى لم تطرق بعد . .

وتضيف إلى الحياة . ما لم يفعله من قبلك أحد . .

هناك حديث مضىء قاله الرسول : « إن الله يحب معالى الأمور . ويكره سفاسفَها » . .

ومعالى الأمور غاية كل إنسان ذكى القلب ، مستبسل العزم .

وأنت ، كلما نمت شخصيتك ، وربت همتك ، واستقامت غايتك ، ازداد هيامك بالعظائم ، مها تكتنفها المشاق ، وعانقت رُوحك الجلائل ، مهما تتطلب من تبعات .

إن رواد المجهول ، المولعين دوما بالسير فى الدروب غير المطروقة ، المهيئة كواهلهم لحمل الأعباء الجليلة الثقيلة .

هؤلاء ، هم الذين يخرجون لنا كنوز الحياة وأسرارها ؛ لأن الحياة لا تفض أسرارها لهذيل ، ولا لجبان . .

ستسألني قائلا :

لو أن كل الناس أخذوا بهذه الوصاة ، لصاروا جميعا روادا . .
وما هكذا سنة الحياة ..

ألا ، فلتعلم أن تلك هي سنة الحياة ، وإرادتها . . وأن جميع الناس خلقوا ليكونوا رُوادا . . كل فرد ، واجبه أن يكون رائدا ..

لأن كل فرد يجيء به إلى الحياة ، ملزم أن يُضف إليها جديدا . .

وهذا هو معنى الرِّيَادة .. وهذه هي سمة الرواد .

الفلاح الذي ينشيء على سطح الأرض كوخا ، ويُودِع تربة الحقل عرقه المتصبب خلال أربعين أو خمسين عاما ، ثم يمضى .. رائد أضاف إلى الحياة جديدا ..

والعامل الذي يقف خلف « ماكينة » تخرج من الخيوط ثيابا ، أو من الورق الأبيض كتابا ، أو من الفحم طاقات تدفع عجلة التقدم دورة .. رائد ، أضاف إلى الحياة جديدا ..

والمعلم ، الذي تلقّى أطفالا ـ لهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، ولهم عقول لا يفقهون بها . ثم أرهف السمع ، وفتح العين ، وثقف العقل . . وصنع من الطفل طبيبا ، أو مهندسا ، أو معلما جديداً . . هو أيضاً رائد : أضاف إلى الحياة جديداً . .

ليس نوع العمل إذن ، ولا حجمه ، هما اللذين يمنحان صفة الرائد . .

بل الروح المتبدّى في العمل ، وطبيعة الجهد المبذول لإنجازه .

قال الرسول يُعلمنا : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » . فإتقانك العمل ـ أي عمل ـ يمنحك روح الرائد ومكانته . لأنك

وأنت تعمل ، ثم وأنت تضع فى عملك كل قلبك وجهدك ونبوغك ـ إنما تمنح طاقة الحياة مزيداً .. وتضيف إليها جديداً .

أنت رائد ، ما دمت تعمل ، مفرغا وُسعك فيما تعمل .. وكل عضلة تتحرك فى دماغك وهو يفكر .. وفى ساعدك وهو يعمل ـ إنما تدفع دورة الدم فى أوردة المصير الإنسانى ، دفعة أنت صاحبها . .

إنك عازف فى أوركسترا البشرية . وكما أن أدنى نشاز فى عزفك ، يفسد اللحن ، ويذهب باتساقه . فكذلك كل انسجام منك . يمنح اللحن إبداعا وفنا ..

على أنك لست « عازفا » فحسب .. بل أنت خالق وفنان . ذلك لأن عملك ، هو عملك .. يحمل طابعك ، وروحك ، ونبوغك .. وهو بهذا يعتبر دخلا جديداً فى رصيد الحياة ..

فإذا تفوقت به ، ومنحته جهداً غير عادى ـ تحوّل فى يدك إلى عمل غير عادى .. إلى معجزة تبهر الألباب .

ولست مطالبا ـ لكى تكون رائداً . ، ـ أن تمنح الإبداع النهائى لعملك .. بل الإبداع الميسور لا غير ..

إن الإبداع النهائى ليس عمل فرد ، ولا جيل ، ولا عصر .. بل هو عمل الإنسانية كلها .

والإبداع الميسور لك ـ هو حلقة فى سلسلة الإبداع النهائى الذى هو عمل كل البشر فى كل العصور ..

وحين يصير عملك « علامة ضوئية » تتركها للناس على طريق لم يكونوا يعرفونها ، فقد فعلت فعل الرواد العظام .

انظر . . .

إن « ماركونى » لم يصنع لنا كل ما ترتب على كشفه الأول من مخترعات .. ومع هذا ، فسيظل مكانه فى التاريخ ، وفى قلوب الناس ، كما لو كان صانعا بيديه كل ما حدث وما سيحدث من معجزات هدى إليها كشفه الأول وخواطره الأولى ..

ولكى تمنح عملك الإبداع الجديد الذى يجعله حلقة جديدة فى سلسلة تطورنا ـ عليك أن تتقنه .

إن إتقان العمل ـ أى عمل ـ يعكس كل ما ينطوى عليه صاحبه من خُلق ، واستعداد ، ونضج ..

وهذا « الإسكاف » الذى يخيط غرزته ، وكأنه فى عبادة .. ويدق مسمارا ، فى عناية من يصنع طائرة . . تبتهج الحياة به وبعمله ـ أكثر من ابتهاجها بهذا الذى يأتى أعمالا كبارا بيد مرتعشة ، وقلب زائغ ، واهتمام فاتر .

وإتقان العمل فن عظيم ، وهو لا يتمثل فى معرفتك ، كيف تعمل فحسب .. بل وفى ، متى تبدأ ، ومتى تكُفّ .. ؟

سئل مثال إغريقى كبير : كيف سبقت معلمك ، وتفوقت عليه ..؟

فأجاب : كان معلمى عظيما ، لا ريب .. بيد أنه لم يكن يعرف متى يجب أن يرفع يده عن التمثال .. !!

فاللحظة التى ينبغى فيها أن تبدأ .. واللحظة التى ينبغى فيها أن تكف .. لها أثر بالغ فى إتقان عملك .

* * *

ولكى تتقن عملك ـ لابد أن تحبه .

وأنت ستحبه قطعا ، إذا اخترت مادته ونوعه ..

فاختر عملك إن استطعت لهذا سبيلا ..

اختر ما تعلم إن إمكانياتك تؤهلك له — وتعطيك القدرة على التفوق فيه .

وإذا لم تستطع أن تختار عملك ، فأحببه حتما ..

إن حب العمل ضرورى لإجادته ..

وإذا لم تستطع أن تعمل ماتحب ، فلتحب ما تعمل ..

إنك لاتدرى ... لعلّ هذا العمل الذى فُرض عليك ، يكون نعمة كبرى لك ..

ولعل الأبواب الموصَدة التى حالت بينك وبين عمل كنت تريده وتتمناه .. لعلها أوصدت لتسلك سبيلا أخرى ينتظرك عليها قدَر عظيم ، وغد بهيج ..

أحبب عملك . لأن عملك . هو فى النهاية حياتك ..

واعلم أن ليس فى الدنيا ، عمل حقير ، وعمل عظيم إلا بقدر وبطبيعة مايبذل فى كل منهما من جهود ..

وكل عمل صغير تتفوق فيه . يتحول من قوره إلى عمل عظيم ..

وكل عمل قديم تبتكر فيه ، يتحول بدوره إلى عمل جديد ..

إذا كنت زارعا ، أو صانعا ، أو طالباً ، أو أستاذاً ، أو طبيباً أو مهندساً ، فاعلم أنك تمسك بنواصى عملك كله .. وأن قدرا كافيا من الولاء له والجهد فيه ، كفيل بأن يخرج لك خبئه ، ويجلّى عظمته ..

وهنا ، أقدم إليك فى خشوع وحفاوة رجلا تمنحنا حياته وسلوكه كعامل فى دنيا الناس ـ كل مايعوزنا من هداية وثقة ..

ذلكم : هو « وشنطن كارفر » ..

زنجى أمريكى .. نشأ عبداً رقيقا . يجمع لسيده الأعشاب . ويتعهد الحديقة . .

سأل سيده يوما ، وهو طفل صغير :

« لماذا يبدو العشب مختلفاً ألوانه . . ؟ »

فأجابه سيده : الحق يا كارفر أنى لاأدرى ..

فعاد يسأل : هل الله يدرى . . ؟

أجابه سيده : نعم ، فهو بكل شىء عليم .

أجاب الطفل جادا : سأذهب الآن وأسأله . .

لقد رأى كارفر ، وهو غلام ، أن الأقدار اختارت له هذا العمل جمع الأعشاب ، والنباتات ، ونفايات الأرض .. فأودع العمل قلبه ، وأكبّ عليه بكل روحه ، ولما رأى من تمام إتقانه أن يتعلم ، عكف على تثقيف نفسه .

كان يتأمل الأشياء التى لايلقى الناس لها بالا . . ريش الدجاج المنتوف .. الطحالب الناعمة .. الديدان والسحالى ..

وكلما كبر ، ازداد هياماً بعمله ..

وإنه ليقبل على عشب مُلق .. أو نباتة مهملة ، فينحنى فى خشوع ، ويقبلها ، ويتأملها ..

وذات يوم رآه صديق على هذه الحال فسأله :

— ماذا تفعل يا كارفر ؟ هل أصابك مكروه ..

فأجابه : لا ـ إنى أصغى إليها .

— تصغى إليها .. أهى تتحدث ..؟

— إن الله يتحدث إلىّ من خلالها ..

هذا رجل اختارت له ظروف الحياة عملا عاديا ـ بل اقل من عادى .. جمع العشب ، وتشذيب الشجر .

لكن حين احترمه وأخلص له ، وأودعه فؤاده الذكى وروحه الغلاب ، ارتفع به إلى مستوى الأعمال المتناهية فى العظمة والجلال .

ودفعه شغفه بعمله إلى أن يعرف كل شىء يتصل به ؛ فتعلم ، ودخل الجامعة ، وحصل على « بكالوريوس العلوم »

وفيما بعد ، تربع على عرش عظيم من صنع يديه ، وأخرج للناس من الفول السودانى وحده ثلثمائة مركب كيمائى .

ومن « البطاطا » وحدها ، مائة وسبعين مركبا من بينها العقاقير ، والأغذية ، والمطاط الصناعى ، وحبر الطباعة ، والبودرة ، والزبد ، والبن ، والصابون ، والمطاط ، والدقيق ..

وسعت إليه جميع الدول الكبرى ، قبيل الحرب العالمية الثانية لينزل ضيفاً عليها ، يمنحها من خبرته وعبقريته . ومنحته أمريكا أرفع الأوسمة .

ويوم مات فى ٥ يناير سنة ١٩٤٣ ، كتب روزفلت يقول :

— « إنى لأعتبر نفسى موفقاً أعظم التوفيق ، إذ اجتمعت به

يوما ، وتحدثت إليه . إن الإنسانية بأسرها مدينة لمكتشفاته التي كانت مثار الدهشة ، ومدعاة العجب » . . !!!

أرأيت . ؟

هذا إنسان لم يزد على كونه ، رقيقاً .

وهذا عمل ـ ليس سوى جمع عشب ، وكنس طريق ، وتشذيب شجر . .

ومع هذا ، فلا النشأة ، ولا العمل . . على ما فيهما من ضآلة ومسكنة . . بقيا في نفس المستوى الذي تسلمهما عنده « كارفر » . . بل نفخ فيهما من روحه وصدقه ، فإذا الزنجي الرقيق أستاذاً من أساتذة البشرية . . !!

وإذا جمع العشب ، عبقرية يتجلى في اكتشافات مذهلة ، ومخترعات جليلة نافعة . . !!

أي سر وراء هذا . . ؟

إنه سر واحد . .

إنها روح الرواد . . حملها الفتى ، وبث منها في عمله فكان كل هذا الإعجاز . .

كان « كارفر » يتغنى دائما بهذه الحكمة :

— « إن الأفذاذ الذين يرتادون المجهول بلا خريطة ولا مصور . . « الذين تتلهف فيهم الأرزاح على أداء الأعمال الجسام . . هم الذين ينيرون السبيل أمام الأكثرين »

* * *

الذين يرتادون المجهول بلا خريطة ولا مصور . . ؟؟

إن « كارفر » يضع أيدينا على سر العظمة . .

السير بلا خريطة . . نبذ التقليد والتبعية . السعى فى العمل وراء الجديد الذى لم يكتشفه من قبل أحد .. فلكى تحمل رُوح الرواد ، ابتكر ، ولا تقلد .

حرك عقلك فى جميع اتجاهاته الواسعة ، ولا تولع بالسير وراء الآخرين .

انتفع بتجاربهم .. ثم احمل تجربتك أنت ، وشق لنفسك طريقا.

إن طرق الله فى الحيـــاة لا حصر لها ، ولا منتهى .. ولقد خُـلقنا كثيرين . ولم نخلق فردا واحدا . . وأعطينا عقولا كثيرة ، ومشيئات كثيرة .. لا عقلا واحدا ، ولا مشيئة واحدة .

وذلك ، ليكشف كل منا الجزء المنوط به من مجهول الحياة ، والعمل ..

والذى يكتفى بتقليد غيره . إنسان انسحب من الحياة ، وألغى دوره العظيم فيها . .

وأنت حين تسير فى الشوارع المعبدة الممهدة ، لا تأتى أمرا مذكورا . .

أما حين تبحث عن درب غير مطروق . . وتكتشفه ، وتنادى الناس إليه ، وتصله بطرائق الحياة الكبرى الواسعة فأنت إذن الرائد الذى يبتهج بك قلب الحياة . .

فمهما يكن عملك ، لا تقف فيه حيث وقف غيرك . . بل ابدأ من حيث انتهى سلفك .

لاتبذل فيه جهد الهمل ، بل ابذل جهد الرواد ..

كن أحد الذين ينيرون السبل أمام الأكثرين . .

لو اكتفى « جورج وشنطن كارفر » من الفول السودانى ، ومن البطاطا بأكلهما ، كما أفعل أنا ، وأنت . . أو حتى لو اكتفى بمجرد الدراسة ، ومجرد الحصول على الاجازات العلمية ، لظل دوره عادياً . .

لكنه صمم على أن يحقق وجوده ، ويضيف للحياة جديداً ..

صمم على أن يسير سيرة رائد — لاسيرة تابع ..

ويحيا حياة عملاق ، لاحياة هزيل . .

فانظر عملك مليا ، وركز على بواطنه وعيك ، وعزمك ، فستلقاه مليئاً بأسرار كبرى . .

وحين يلمح منك اهتماما وتقديساً ، سيسارع إليه بخبئه وبأسراره.

إن فى يدك أن تفعل مالم يفعله من قبل أحد ، إذا بذلت فى عملك جهد الصادقين . .

ذلك أن كل خطوة تخطوها فى الحياة ، هى خطوتك أنت . .

وكل حركة لك ، هى حركتك أنت ، والحياة تنتظرك لتفعلها ، فإذا فعلتها بقوة ، وفطنة ، وتجديد فقد فعلت شيئاً جديدا ، لم يفعله من قبلك أحد .

فإذا كنت تحمل قلماً ، وتكتب للناس ؛ فلا تجعل همك تسويد الصفحات ، وترديد ماقاله قبلك كثيرون . بل ابحث عن الجديد ،ولو فى الفكرة المطروقة — ثم قدمه لقرائك . .

وإذا كنت عالما ، أو مخترعاً ، فلا تجعل همك محاكاة الخلاقين .

والسطو على جهود العاملين ـ بل خذ مكانك معهم ـ خلاقاً جديداً .

إن أسرار الحياة لا تنتهى .. ومن يقرع الباب ، يفتح له ..

إذا كنت صانعا . فلا تكن آلة من حديد ، أمام آلة من حديد . .

بل ميز نفسك عنها باستعمال عقلك ـ وضع عينيك على كل شرارة تبرق منها فإنها تضىء لك سرا هناك يناديك ويلح عليك . .

وإذا كنت طالباً ، فلا تذاكر لتنجح ، بل ذاكر لتكتشف عقلك . . .

لا تبحث بين السطور التى تقرؤها عن درجات النجاح .. بل ابحث عن سلوك الحقيقة العلمية ، لتستطيع فيما بعد أن تهتدى إليها ، وتتلقى عنها .

لا تجعل غايتك أن تظفر بشهادة تدثر بها عريك العقلى .. أو تأكل بها عيشاً ..

بل اجعل غرضك أن تحصل على «المفتاح» الذى تفض به أكبر قدر ممكن من أبواب المستقبل لنفسك ، وللناس جميعا .

ومن يحمل روح الرواد هذه ، ويمارس عمله وواجبه بروح إنسان مبدع ، ورائد مقدام ، فإن قوى الحياة تسخر لأمره ، وتسارع إلى نجدته ، وتظل عظائم الأمور مطويات بيمينه الظافرة ..

واعلم أن الله لم يحرم أحدا من روح الرواد .

وإنما الناس هم الذين ينامون عما معهم من ثراء روحى عظيم ، ويسلمونه للضياع ..

إن معظم الذين فكروا ، وعملوا ، واخترعوا — من رواد الإنسانية ، لم يكن فى حسابهم وهم يؤدون واجباتهم . أنهم يصنعون من أنفسهم روادا ، ومن أعمالهم أمجادا ..

لقد كانوا يعملون فحسب ، ويتقنون أعمالهم وواجباتهم لاغير — ثم كتب لهم خلود لم يسعوا إليه ، وأخذوا مكانهم فى الصف الأول من غير حرص ولا صلف ..

وتحت إهاب كل منا رائد مكنون ..

أيقظ الرائد الذى تحت ضلوعك ؛ يصنع لك المعجزات .

إن أعظم حوافز الحياة ، كامن فى عزيمة الإنسان ..

والعزيمة موهبة لم يحرمها أحد ..

يتفاوت الناس فى ثرائهم ، وفى أشياء كثيرة من مظاهر العيش والحياة ..

ولكنهم جميعا سواء فى روح الله الكامن داخلهم ..

سواء فى العزيمة القادرة على بلوغ مايريدون ..

هناك ـ لاغير ـ ناس يستعملونها .. وناس يهملونها ، ويتركونها للصدأ والبوار ..

انظر ..

إن أكثر الذين فجروا طاقات الحياة ، ودفعوا قافلة التقدم ـ كانوا إما فقراء ، أو مرضى ، أو ذوى تعاسة فى حياتهم ..

فبأى قوة خلقوا ، وحلّقوا . . ؟؟

إنه ، هذا الذى لم يحرم الله منه أحداً .. إنه الحافز الروحى الفذ ،

الذى تتألق مظاهره ، وإن خفى - إلى حد كبير - كُنهه ..

إنه هو الذى جعل من محمد اليتيم ، أبا للبشرية كلها ..

ومن المسيح المضطهد ، بهجة العالم وسلامه ..

ونقل عمر بن الخطاب من فتى يرعى شويهات خالاته نظير حفنه من التمر - إلى أمير المؤمنين يرفع لواء العدل والتوحيد فوق أنقاض كسرى وقيصر ..

وجعل من « إبراهام لنكولن » الصبىّ الحطاب ، رائدا من رواد الإنسانية الحديثة ، والتاريخ الحديث :

وصنع من « كارفر » ما سمعت ..

ويصنع من كل إنسان مثل ذلك ، إذا فتح بصيرته على مركز القوى ، وحرّك بيد قوية مفتاحه ...

إنه - كما قيل - من قبل : « لا مستحيل على القلب الشجاع ...

والعزيمة تتطلب مثابرة لا تكل ، وصبرا لا يمل ..

والذين يملكون أزمة الصبر ، والمثابرة يتهيأون لكل عمل عظيم .

عندما كانت تضيق حلقة الاضطهاد حول رسل الله ، كان الأمر الذى ينزل عليهم ، :

— « اصبروا »

— « لا تيأسوا من روح الله »

فاصبر على أداء واجبك ، وثابر على تجويد عملك ، ولا تيأس أبدا ..

اجعل شعارك « غداً تغرد العصافير » ..

فإذا غلبك اليأس ، فقل : « بعد غد ، تغرد العصافير » .. « !! »

احفظ عليك هدوءك ، وإصرارك ، ولا تيأس ..

إذا اقتلعت الريح خيمتك ، فاعلم أن القدر يدعوك لتبنى مكانها قصراً ..

وإذا تفجرت البراكين حولك فقل : إن القدر يحرث لى الأرض ، لأملأها غرسا وبذرا .

« إن يد الله تخف بالنجدة لكل مثابر ، دءوب »

هكذا قال حكيم ، وإنه لصادق .

* * *

لاتحقر عملك أيا كان نوعه ..

ولا تستهن بواجبك ..

واعلم أنه خير لك أن تكون « الأول » فى عمل صغير ، من أن تكون « الأخير » فى عمل كبير ..

والأولوية التى نريدها طبعا هى أولوية التفوق الحقيق المستمد من خلقك ومثابرتك وذكائك ..

على أن الأمر — كما ذكرنا من قبل — ليس هناك عمل صغير أبدا ، إذا كان الجهد المبذول فيه كبيراً ، ونبيلا ..

دعنى أقص عليك هذا المثل الطريف ..

كان فى حى « الحسين » بالقاهرة ، رجل عظيم الحذق فى صنع « الطعمية » ..

رجل ، لابد أنه نشأ كما ينشأ أترابه .. صبيا يشتغل بهذه الحرفة لكنه ليس ككل صبى .. بل مفتوح العين ، مرهف الحس ،

متفانيا فى معرفة عمله وإتقانه ..

وكبر ، وصار صاحب عمله ، وسيد حرفته ..

كان الناس يقصدونه من كل مكان ..

كان الوزراء ، والكبراء . يسعون إلى حانوته الصغير ، أو يرسلون من يحمل إليهم من لدنه مايشتهون ..

أليس طهو الطعمية ، وبيعها ، من الحرف الدنيا فى بلادنا .. ؟

ومع هذا ، فقد جعل هذا الرجل من نفسه ملكا متوجا اسمه « ملك الطعمية » ..

أجل ، هكذا كان لقبه بين الناس ..

فبأى حق ، أخذ الملك ، ولبس التاج .. ؟؟

إنه حق التفوق ..

كان « الأول » فى عمله ، على الرغم من مستوى هذا العمل ..

فصار واحدا من « الأوائل » فى قومه ومجتمعه ..!

فاجعل همك أن تكون « الأول » فى عملك . . تسارع إليك كل فرص الخير ، والفوز ، والتوفيق ..

وهى كما قلت لك « أولوية » جدارة وبذل .. لا أولوية ، ادّعاء ، واستعلاء ..

* * *

وإذا أردت أن تكون رائدا ، فتخلّق بأخلاق الرواد ..

واعلم أن الريادة ، بطولة ..

والبطولة الحقة ، لاتعنى بالشهرة ولا بالمجد ، إنما تعنى بالعظمة ..

افتح بصيرتك جيدا على هذه الكلمات التى أكتبها لك بحروف كبار .

**« دَعِ المجد والشهرة لِلحَمْقَى ، واذهب أَنت بالعَظَمة » ..**

« دع المجد والشهرة للحمقى ، واذهب أنت بالعظمة » ..

والعظمة شيء مختلف عن المجد ، بعيد من الشهرة ..

العظمة ، عمل من أجل العمل ..

أما المجد ، فعمل من أجل الزهو ، كما أن الشهرة عمل من أجل الغرور .

العظمة ، خُلوص الشخصية من آفاتها ، وخلوص العمل من بواعث النفعية والوصولية ..

العظمة رفعة ، تحقق نفسها بالترفع ..

والشهرة ، كثيراً ما تحقق نفسها بالتهالُك ..

والإنسان العظيم ، يسعى إليه المجد ، وتخدمه الشهرة .

أما طالب الشهرة والمجد ، فإنه يتحول إلى خادم ذليل لهما ، وإلى تراب تحت أقدامهما . .

« العظيم » لا يتهافت على الشهرة ، بل يهرب منها ، لأن فى ضوضائها خطرا على سكينة نفسه ، وتبتل روحه ، وسيادة عقله ..

و« العظيم » واحة يلتمس الأحياء عندها راحتهم ، وقوة تحقق بها الحياة كيانها ..

و« العظيم » بسيط فى مظهره ، واثق بنفسه .

هو يعلم أن لديه كثيرا مما يريده العالم ، ويحتاجه الناس .

وهو يقدم هذا الذى عنده فى غير منّ ، وفى غير صلف . .

هو :
يعطى ، ولا يسأل . .
يمنح ، ولا يأخذ . .
يقبل ، ولا يدبر . .
يواجه ، ولا يهرب . .
يتفانى ، ولا يتردد . .
إنه يخدم الناس ، لا طمعا فى مال ، ولا فى ثناء
وهو يؤدى دوره فى استبسال وغبطة ، فإذا جاء النصر ، وخفقت راياته ـ انسحب فى هدوء ، باحثا عن واجب آخر يؤديه ، وبطولة أخرى يحققها . .

لا يقف لحظة ، ليقول للناس : انظرونى . .

ولا يطالب لنفسه بامتيازات خاصة لقاء ما أدّى ، وجزاءَ ما فعل .
وهو مهما تعلُ مكانته ، لا يفتأ يعيش .. «واحدا» بين الجميع ، ويرفض أن يعيش « سيداً » فوق الجميع . . !

ذلك أن ثَراء مواهبه وروحه . يمنحه دائما شبعا وريا . فلا يعود يرى فى الأمجاد التى يتهافت عليها الصغار سوى فتات لا تقع عليه عين مشغولة بالمناعم ، ولا تشتهاه نفس شبعانة بالطيبات . . !

والساعى إلى « العظمة » كبير ـــ دائما ـــ حتى إذا زلت قدمه وغلبته العثرات . .

أما الساعى إلى الشهرة . فصغير ـ غالبا ـ ولو كان فوق رأسه تاج .

الإنسان العظيم كالمحيط .. هادىء قوى
وكضوء الفجر .. مبشر ونـــدِىّ
وكروح الربيع .. مبهج وثَرِىّ

ألست أدعوك للخير إذن حين أقول لك : « دع المجد والشهرة للحمق ، واذهب أنت بالعظمة .. ؟؟

أجل : فاجعل مناط سعيك فى الحياة ..
أن تكون رائداً ..
أن تكون نافعاً ..
أن تكون عظيماً ..

* * *

إنك إذا تتبعت سيرَ الرواد الكبار الذين غيروا وجه الزمن ، وأحسنوا صوْغ المصير لوجدتهم بلا استثناء أصحاب عظمة ، لا طالبى مجد ، ولا متسوِّلى شهرة .

وستجد أكثرهم ، قد حرم نفسه ـ مختارا ـ بل قل : طهّر نفسه من كل مغريات المجد والشهرة .

ستجد كثيرين منهم إن لم يكونوا جميعـــاً . قد نأوْا واعن الأضواء ، والراحة . ورضوا العمل الصامت . وآثروه على الضجة الفارغة ..

وعلى الرغم من أنهم قضوا حياتهم ، عائشين فوق اليَمّ ، بعيدين من المرافىء ، مواجهين المخاطر .. فقد زهدوا فى الحرص على الإطراء ، ولم يسمحـوا لتصفيق الإعجاب أن يفسد عليهم

تأملاتهم ، أو ينال من تواضعهم ، وتنازلوا عن حقهم فى كل جزاء وشكور . .

ذلك لأنهم أحبوا العظمة الصادقة وعشقوها ، وعرفوا ماتنطوى عليه من مشوبة تتضاءل دونها كل المثوبات ، فحملوا تبعتها ، وآثروا صحبتها . .

لا تعِشْ وَعَلى عَينيكَ عِصَابةٌ..
وَامضِ بَصيرًا
في يَمينكَ "إلى أَيْن"؟.
وفي يُسْراكَ "لِماذا"؟.

أنت فى الحياة حدث جديد ، وطاقة جديدة . .

ويوم وُجدت ، امتلأ فى الحياة فراغ كان ينتظرك ، ولا يملؤه بعد وجودك أحد سواك . .

وهذا يحدد واجبك تجاه الحق الذى للحياة عندك حين صرت واحداً من أبنائها وجنودها . .

وقوانين الحياة ، بل قوانين الكون ، تقوم أول ماتقوم على الترابط . .

إذا انزلقت الأرض عن مدارها حول الشمس جزءا من الثانية ، بادت فى جزء من الثانية . . . !!

إذا تلوث هواء بغبار ذرى كثيف ، هلك الذين يتنشقونه من الأحياء . .

الكون كله ، عائلة واحدة . .

والحياة الإنسانية ، قلب واحد . .

ونحن — فى الدنيا — ركب سفينة تمخر العباب ، ويستطيع أحدنا أن يغرقها بما فيها ، إذا سمح له الآخرون أن يثقبها بمسمار . . !

إنك — قطعا — لاتودُّ أن تكون ذلك الواحد . .

وتستنكر بشدة أن يساء بك الظن ، ويدور فى خلد أحد ، أنك هو . .

ولكنى أقول لك : إنك تثقب السفينة كل يوم ، وكل ساعة ،

إذا أغمضت عما يجرى حولك عينيك ، جاعلا شعار حياتك العاجزة « وانا مالى » ..

* * *

إن الحياة ترفض الإمعية :

ولو كان عيش بعض الناس كلاًّ على البعض الآخر مما تقبله . .
إذن لاختصرت نفسها ، وتخففت من أعباء الكمّ فيها . .

هناك بيت من الشعر يقول :

قد هيأوك لأمر لو فطنت له
فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

هذا ليس خيالا ، بل حقيقة . .

وهذه الحكمة موجهة لك . .

فأنت شىء كبير هائل ..

إن القوى التى تعمل فى الشمس ، وتجعل منها شمسا ..

وتعمل فى الذرّة ، وتجعل منها هولا . . هى نفسها التى تعمل فيك وتجعل منك أنت ...

والحياة الإنسانية ، تتمثل فيك ، كما لو كنت الجنس البشرى كله . . .

من أجل هذا ، كانت مسئوليتك أبعد آمادا من حدود نفسك وتخوم ذاتك ..

ومنذ أضاءت الحياة فيك ، وصرت واحدا من شموعها الكثيرة ، وأنت بالنسبة إليها حدث هام بالغ الأهمية . .

وإذا كنت « حوذيا » فمسئوليتك عن الحياة ، لا تقل عن مسئولية « الملك » لأن حفاوة الحياة بالحوذى وبالملك سواء . .

أليست لك مثل ماله عينان . . ، ولسان وشفتان ، وإرادة ، وعقل . . ؟

إذن ، فلك دور فى الحياة ينتظرك .. ومسئوليتك عن هذا الدور تتساوى فى التحليل النهائى لها ، مع مسئولية الملك عن دوره ..!!

ذلك أن الحياة لا تنمو بالأعمال الجهيرة وحدها . بل هى تستمد نَماءها من كل عمل تتطلبه .. بل إن الأعمال الكبيرة نفسها ، ليست إلا المجموع الكلى لأعمال صغيرة ..

فلا تخالنّ نفسك تحيا على الهامش ، فليس للحياة هوامش . .

فافتح عينيك ، ولا تعش وعليهما عصابة . .

ولكى تكون قادراً على أداء دورك الحى ، كن بصيرا بزمانك . .

إن الحياة اليوم خصم كبير يتفجر بالحيلة والذكاء .

فواجه الخصمَ بعينين مفتوحتين . ومسئولية مبصرة :

لقد انتهت عصور الإذعان ، والتلقّى ، ولم يعد ناس اليوم صالحين للسير صُمّا وعميانا . .؟

والذى يسير أعمى وسط الزحام ، ستدوسه الأقدام وتطحنه العجلات . .

ضع قدميك على الصخر . إذا أردت ألا تبتلعك الهوة الفاغرة ..

ابحث ، وناقش ، وتساءل .. واجعل ضمن تسابيحك المقدسة :

إلى أين .. ؟ ولماذا . . ؟

دائماً تساءل : كيف .. ؟ إلى أين ..؟ لماذا . .؟

واعلم أنه لن يضيق بهذا التساؤل سوى الباطل .. أما الحق فلا شيء يثلج صدره مثل هذا التساؤل الذكي الدءوب .

من أجل هذا ، ولأن الله هو الحق المبين ، فقد حضّ الناس على أن يتساءلوا ، وينظروا فى ملكوت السماوات والأرض ، ويحاولوا معرفة كل شيء . . من « كيف بدأ الخلق » إلى — « وأنَّ إلى ربك المنتهى » . .

وأثابهم على هذا بوعد منه أن يكشف لهم من الأسرار ما يريدون كشفه ومعرفته :

« سأريكم آياتى ، فلا تستعجلون » .

إن كل تسليم مطلق ، نقص كبير من نفوذك ، وأذى يحيق بقضية الحياة كلها . .

والتصميم على أن تعرف ، جزء كبير من مسئوليتك ، كمواطن ، وكإنسان ..

فلا تضحّ برأيك ، ولا تتلاش فى غيرك .. ولا تكن إمعة تطفو فوق العباب . . بل ارفع رأسك عاليا بين الرءوس ، ورقبتك بين الرقاب .

حاول أن تفضّ بالسؤال . مغاليق مالا تعرف ، من آفاق الكون العليا — إلى سير الحياة فى شارعك ، أو زقاقك . . .

وكن من الذين يجيشون الدنيا مزودين بفضيلة الإصغـــاء ، وفضيلة التساؤل . .

ولا تقف أمام شيء — ولا تُجفل عن استطلاع غيب .

عقائدك ، وأفكارك ، واتجاهات قومك وعصرك . .

كل هـــذا أخضعه للسؤال . وطلب المعرفة ، وللنقد النزيه الأمين القوى . .

هناك حكمة جليلة . قالها المسيح حين داوى مريضاً يوم سبت ، فأراد خصومه أن يتخذوا من هذا العمل سبيلا للتشهير به والتأليب عليه ، إذْ مارس العمل فى يوم عطلة الرب ، كما يزعمون . .

هنا لك قال لهم المسيح :

« إنما جعل السبت من أجل الإنسان ، ولم يخلق الإنسان من أجل السبت » . . .

أجل . . إنما جعل السبت من أجل الإنسان . .

كل شيء هنا — وُجد من أجل الإنسان . .

العقائد ، والأفكار ، والقوانين ، والحكومات . .

كل شيء من أجل الإنسان . .

فتقدم ، ومارس حقوق سيادتك تجاه كل شيء . .

أخضع كل شيء لعقلك ، حتى العقائد . .

لا تخش شيئاً . . إن الله ذاته يشجعك على هذا السلوك . .

بل إن حكمة الخالق ، لتكاد تومىء إلى أن المحاولات التى نبذلها لكى تعرف — من أهم مقاصد الخلق . .

فما كان أيسر أن يكشف الله لنا أولا ، وبداءة . . كل أسرار خلقه . ولكنه تركها مستسرَّة مخبوءة . لنكشفها نحن بمحاولاتنا . .

لنسأل : كيف . . ولماذا . . ؟ ثم نتابع السؤال والمحاولة حتى يأتينا اليقين .. وخلال عملية المعرفة هذه لا نكتشف المعرفة وحدها . بل ونكتشف أنفسنا معها . .

* * *

إن الإنسان حين استمسك بكلمة « كيف » وجعل منها أداة تطلع ومعرفة ، أنشأ العلم ، وحل الكثير من ألغاز الكون ..

منذ بدأ يقول « كيف » ..؟ ، وقلاع المجهول تستسلم له قلعة وراء قلعة ..

كيف يسقط المطر .. ؟ كيف خلقت الأرض ؟ كيف أتى الإنسان. كيف تعمل المادة .. ؟ كيف يتنقل الصوت والضوء ..

أسئلة كهذه غيرت مصيره ، أو قولوا كشفت مصيره ..

وكلمة « كيف » كانت « الشفرة » التي خاطب بها المجهول .

ولقد توصل بـ « كيف » إلى معرفة الكيفية التي تعمل بها الحياة .

وسيصل بـ « لماذا » إلى حكمة الحياة .

ففي حياتنا العامة ، وفي شئوننا العامة ، علينا أن نتوسل دائما بهذين المحركين القويين .. إلى أين .. ؟ ولماذا ..

أمام قوانين الجماعة ، ونظمها ، وأفكارها ، والتيارات الظاهرة ، والخافية فيها — قف ، وتساءل : إلى أين ، ولماذا ..؟

ناقش كل شيء .. وافهم كل شيء .

ولا ترح نفسك من عناء التفكير في المسائل العامة ، فتلك الراحة موت محقق .

وتجنب « الحياد » تجاه الواجبات العامة ، والقضايا العامة . .

فالحياد فضيلة ، حين يكون موقفا تجاه باطلين يتصارعان . .

أما حين يكون الصراع بين حق وباطل ، فلا حياد . .

وكذلك حين يكون الحياد تخليا عن مسئولية دراسة الأوضاع العامة ونقدها — فإنه لايكون حيادا مقبولا . .

بل يكون — كما قال بركلي — خيانة وهروبا . !!

لابد أن يكون لك موقف أمين تجاه كل وضع ، وكل مبدأ ، وكل تطبيق . .

ولابد أن ينبعث هذا الموقف من رُوح تريد البناء ، لا الهدم ، والتقويم ، لا التقويض . .

ولابد أن يكون هذا الموقف ، موقفك أنت ، فليس يغنى عنك شيئا أن تقول : إن الآخرين يعملون . .

كلا — إن الحياة تريد عملك أيضا . . تريد موقفك أنت ورأيك أنت . . تريده حتما ، وتريده بأسلوبك وطريقتك . .

تأكد من أنك تعطى الحياة بقدر ما تأخذ منها . .

تأكد من أن الأفكار التى تغذى عقلك ، هى خير الأفكار . .

تأكد من أن القوانين التى تسنّ فى بلدك ، إنما تسن لصالح الناس . .

ناقش جميع الذين معك ، وحولك . .

ناقش نفسك ، وحاكمك ، وأستاذك ، وأباك . وإذا أنكر أحد عليك هذا الحق . فأخرج له شهادة ميلادك . لتذكره بانك إنسان . « ١ »

عندما تقدم من رسول الله أحد الناس يقول له :

« اعدل يامحمد ، فليس المال مالكَ ولا مالَ أبيك » ..

همّ به عمر ليسكت أنفاسه ، فرده الرسول قائلا .

« دعه ياعمر .. إن لصاحب الحق مقالا » .. !!

لم يكن الرجل صاحب حق ، لأن الرسول لم يظلمه ولم يظلم غيره — بل كان يجوع ليشبع الآخرون ، ويحرم نفسه ، ليجد الآخرون ..

وإنما أراد الرسول أن يحمى حرية النقد ، وأراد أن يشجع الأدنى ، على مناقشة الأعلى ..

ولقد حذق عمر الدرس ، فحين ولى إمارة المؤمنين . واقترب منه ممن يقول له : « اتق الله ياعمر » . .

اعترضه أحد الصحابة زاجرا إياه وقائلا له : « أتقولها لأمير المؤمنين . . ؟

هنا لك قال عمر : دعه .. فالويل لكم إذا لم تقولوها .. والويل لنا إذا لم نسمعها ... !! »

ولكن ليس معنى « لماذا ».. أن تكون فضوليا متطفلا مَقيتا .. تقتحم من أسرار الناس وحرماتهم ما ليس لك بحق .

إنما هى أداة لفهم الأشياء والمسائل ، فهما يعينك على اتخاذ موقف صالح تجاهها .

وأداة لفهم الناس فهما ليس الغرض منه تبين مواطن ضعفهم لاستغلالها ضدهم .. بل الغرض منه مساعدتهم . والأخذ بيدهم .

كذلك ، ليس معنى النقد أن تكون سليط النفس ، واللسان . . وأن تصدر فيه عن رغبته شريرة فى الإيذاء والكيد ..

إن الحياة لاتضيق بالنقد ، لكنها تضيق بالحقد . فأدّ واجبك كناقد أمين ، ومحب غيور . .

* * *

وانقد — حين تنقد — فى حدود خبرتك ومقدرتك . .

ودعنى أقصص عليك هذه الطرفة ، فإن لها دلالة نافعة . .

قالوا : إن رساما شهيرا ، آمن بجدوى النقد ونفعه ، فكان يضع لوحاته خارج مرسمه لدَى الباب ، ثم يجلس خلفها فى وضع غير منظور ، مُصغيا لآراء السّابلة . .

وذات مرة ، عبر الطريق « إسكاف » عرفه الرسام من صوته . .

وتملّى الرجل اللوحة ، وأبدى بصوت مسموع كمن يحدث نفسه بعض ملاحظات ، صادفت لدى الرسام ارتياحا ، وقبولا .

قال الرجل ، ما أبدع هذا الرسم ، لولا أن عنق الحذاء أطول مما ينبغى . .

وحين استرجع الرسام لوحته ، أصلح عنق الحذاء .

وفى اليوم التالى أعاد اللوحة إلى مكانها خارج المرسم وجلس هو فى مكانه . .

ومرّ « الإسكاف » كعادته . . وكم كان عجبه ، إذا رأى عنق الحذاء قد تقاصر كما كان يريد .

هنالك أخذه الزهو . ومضى يبحث عن عيوب أخرى . .

وسمعه الرسام يهمهم قائلا : « والصدر أيضا . . إنه بارز أكثر مما ينبغى » . .

عندئذ برز الرسام من مكمنه ، وقال له :

« اسمع ياصديق .. اسمح لى أولا أن أشكرك على ملحوظة الأمس. واسمح لى ثانيا أن أقول لك : إن نقد الإسكاف ، يجب ألا يجاوز عنق الحذاء »...!!!

ليس هذا حداً من نشاط النقد الحر ، ولا تهويناً من شأن الناقد إذا لم يكن ذا جاه أو مكانة ..

أبدا ... وإنما هو دعوة لاحترام أمانة النقد ، وقصر آرائنا على الجوانب التى تسمح لنا خبرتنا أن نصدر فيها أحكاما عادلة . .

وهذه القصة . تمثل واجبنا تلقاء نقد الحياة .

فلكل منا خبراته ، ومجال معرفته ، وعليه أن ينقد الحياة من خلال خبرته ، وتجربته ، ومعرفته . .

فالنقد يكون مجديا ، حين يجىء من خبير عارف . .

أما حين يكون مجرد ادّعاء ، وتقحم ، فلا خير إذن فيه ، ولا نفع له .

* * *

وليس معنى النقد إصدار أحكام مطلقة . يضيع فيها ماالتحديد الحق من مغزى .. وليس النقد أحكاما متطرفة تحصى السيئة ، وتجحد الحسنة .. ولا أحكاما عشوائية ، تُلقَى فى غير تثبت أو اكتراث .

إنما النقد أمانة ، وقضاء . .

وله ما للأمانة وللقضاء من حرمة وتحوّط .

* * *

إن كل فرد فى هذه الحياة ، مدعوٌ لأن يحرك وجوده

بأن يسأل ، ويفحص ، ويناقش ، وينقد .

كل فرد ملزم بأن يحمى الحياة من العبث ، ويقف منها موقف «حارس البرج» يقظان مستعدا ..

وإذا كان حارس البرج ، يتبين أشباح الظلمة بصيحته . «من هناك»؟ فإن حارس الحياة يتعقب نفس الأشباح بسؤاليه : «إلى أين» ..؟ «ولماذا» . . ؟

فابعث من طوايا العزلة وجودك المستقبل الواعى ، وأدّ دورك ، كما لو كانت الحياة لاتحيا بغيره .

* * *

إن التبعية المستسلمة والانصياع الأعمى يشكلان خطراداهما . على تفكيرك ، وعلى مصيرك . .

بل وعلى مصير الجماعة التى تعتمد على رأى كل فرد من ذويها ..

ولقد ضرب الله لهذه التبعية مثلاً فى قرآنه الكريم ، فقال :

— «إذ تبرّأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبعُوا . ورأوا العذاب . وتقطعت بهم الأسباب .

«وقال الذين اتَّبعوا . لو أن لنا كرّة ؛ فنتبرأ منهم ، كما تبرأوا منا ..؟ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار»

وإليك مثلا آخر ، يحذرك الله به من أن تفقد نفسك، واستقلالك أمام من هو أكثر منك قوة ، أو أرفع جاها .

فيقول سبحانه :

— « وإذ يتحاجُّون فى النار . . .

« فيقول الضعفاء للذين استكبروا ، إنا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مُغنُون عنا نصيبا من النار ؟

« قال الذين استكبروا : إنا كلٌّ فيها : إن الله قد حكم بين العباد » . . . ! !

أجل . . إن الله قد حكم بين العباد ، فإذا سكت الناس عن حق ينتظر مساندتهم إياه ، أو جبنوا . أمام باطل ، يستحق دحضهم له . . فإنهم جميعا يُنادَون إلى القصاص ، ويدفعون ثمن سكوتهم ، وهروبهم . .

* * *

إن الحياة تدعوك مُلحة . لتعلن فيها رأيك . .

فتقدم . . وادرس . . وناقش . .

إن أكثر معجزات تقدمنا الانسانى ، إنما بدأت بلفتة ذكية من ناقد أمين .

والحياة الانسانية لا تريد لأعضائها أن يعيشوا عمياً ، ومعهم عيونهم ، بكما ، ومعهم ألسنتهم ، صُمًّا ، ومعهم آذانهم .

وإنها لتُبارك علامات الاستفهام البشرية ، وتفتح لها ذراعيها . .

فكن « علامة استفهام » دائبة التنقّل بين الأشياء حتى تفهمها ، وحول المشاكل حتى تجد لها حلا ، أو تسهم مع الذين يبحثون لها عن حلول

وامض فى حياتك بصيراً . . عارفا . . غير أعمى وغير مخدوع .

عِشْ صَدِيقًا طيّبًا

وَلْيَكُنْ .. اسْمُكَ .. نِدَاءَ النَّجدة لِلْمَكْرُوبين

وَلْيَكُنْ .. قَلْبُكَ .. مَرْفَأَ الرَّاحَةِ لِلْمُتْعَبِين.

من مادة لغوية واحدة ، جاءت كلمتا .. «صِدْق» و «صداقة . . ، وكلمتا «صادق» و «صديق» ..!

والصداقة ، التى هى أعلى مِنح الحياة ، تمتزج امتزاجا كاملا بالصدق الذى هو أسمى فضائل الحياة .

وقديماً ، لم يأسف «سقراط» لشىء ، مثل أسفه لعدم إهتمام الناس بالصداقة ..

ومنذ عهد «سقراط» إلى يوم الناس هذا ، مرّ بالحياة كثيرون من الذين قدّسوا الصداقة ، وكثيرون من الذين أبغضوا منها ، وعاثوا فيها فسادا . .

ولكنْ ، مع المستوى العام للتقدم الإنسانى . تسير الصداقة مجتازة أضغان الأنفس ، محققة لنفسها انتصارا وتقدما . .

وتحتفى الحياة — أول ما تحتفى — بالذين يُرعرعون الصداقة ، ويسقون شجرتها المباركة . .

فهل أنت واحد من هؤلاء .. ؟

دعنى أولا . أذكرك بأنك لاتعيش فى الدنيا وحدك ، وأن العزلة محال ....!!

فمهما تحاول أن تنطوى على نفسك ، أو تعتزل الناس ، فإن لك بالآخرين ارتباطات ، ظاهرة ، ومخبوءة ، تربطك بهم ، وتجمعك وإياهم ، فى لقاء ، وفى غير لقاء ..!

حين تجلس — مثلا — فى خلوة ، تطالع ، كتابا ، وتحمد العزلة التى أنت فيها ـ أتظن أنك ـ ساعتئذ ـ فى عزلة . . ؟؟

أبدا .. فهذا الكتاب الذى بيمينك « ستندال » يصلك بعدد كثير من الناس من غير أن تدرى . .

فهناك مؤلف الكتاب يعيش معك . ويؤثر فيك . وهناك الذين تأثر بهم المؤلف نفسه ، وأثر بعضهم فى بعض ـ تنتظمهم سلسلة طويلة ، ورتل طويل .. !

حيثما وليت وجهك ، تجد الحياة تواجهك ، وتتابعك بعلاقات كثيرة . .

فى عملك ، تفرض عليك زمالات ، تعرف منها وتنكر . .

فى الطريق .. فى « المترو » تلتقى بناس تنظرهم ، وينظرون إليك ، وتترك نظراتهم العابرة فى نفسك من مشاعر الرضا ومن مشاعر السأم ماتحب ، وما تكره . .

بل فى بيتك . ومع أسرتك ، ينقل إخوتك وأبناؤك إليك ، أصداء علاقاتهم بآخرين لا تعرفهم ..

هكذا يأتيك الناس فى صور شتى ، ويتسللون إلى حياتك ، راضيا ، أو كارها . .

وفى دوامة الحياة الكبرى ، تلاقى وجوها ، وتصافح أيديا ، وتزاحم مناكب ، وتنشىء علاقات لا أول لها ولا آخر .

ومن ثم . كان تحديد صلتك بهذه الدوامة أمرا ذا بال فى حياتك ومصيرك . .

وعلاقات الناس بعضهم ببعض ، ترسمها وتحددها أكثر من جهة..
فهناك القانون ، وهناك العرف ، وهناك الضرورة .

ولكن خلال الرحلة الإنسانية الطويلة ، اكتشف الإنسان أعظم مكتشفاته فى هذا السبيل ـ وكانت .. الصداقة .!

أجل .. إن الصداقة ، هى قمـــة التطور الذكى السوىّ للعلاقات الإنسانية بأسرها ..

وإذا كان الناس منذ وُجدوا ، يكافحون الفقر ، ويهربون من شقائه . .

فاعلم أن شر صنوف الفقر ، هو فقر الأصدقاء .

أجل .. ليس انعدام الثروة وحده هو الفقر . . بل إن إنعدام الصديق ، يمثل لونا كابيا من ألوان الحرمان ، والمجاعة .. !

* * *

لاتصدق أنك تستطيع الحياة بغير أصدقاء ..

ولا تصدق اليأس حين يلقى فى روعك أن الصداقة أسطورة.
وأن الناس ــ جميع الناس ــ ذئاب ..!

وليس عليك ، لكى تكتشف مزايا الصداقة ، وحتميتها ، ولكى تعلم أن الأصدقاء فى الدنيا كثيرون ..

ليس عليك لتبلغ هذا ، إلا أن تبدأ أنت ؛ فتكون صديقا . .

جرد من نفسك قاضيا على نفسك ، وأدِنْها ، قبل أن تقف من الآخرين قاضيا وديّانا .. !!

فإذا بدا لك منها قصورُها ، وتقصيرها ..

وإذا تبينت أنه ينقصك الكثير من خصال الصديق وسماته ، فاعلم أنه من هنا غمّت عليك رؤية الصداقة ، ورؤية الأصدقاء .. وابدأ بنفسك . وكن صديقاً طيبا .

وابدأ هذه البداية ، بأن تعرف ، ما الصداقة ..؟

* * *

الصداقة سلوك تعبر به النفس عن حاجتها إلى نظير .

وهي « مشاركة » خالصة ، بين اثنين أو أكثر ، على مستوى عال من النبل ، والتفاهم ، والإيثار .

وهي لهذا ليست « اتفاقا تجاريا » بين اثنين .. بل هي « ميثاق » بين قلبين ، وحياتين ، وإنسانيتين رفيعتين ..

وكما تبذل جهودا عظمى ؛ لكى تظفر بإجازة علمية كبرى ، عليك أن تبذل جهودا مماثلة ، لكى تظفر بصداقة صادقة .. !

إن جهلنا بحقيقة الصداقة ، يحرمنا من مباهجها الباقية ..

فنحن نحسبها مزاحا ماجنا .. أو نفعا متبادلا .. أو وصولية زائفة .. نحسبها « لقاء » حول مائدة قمار ، أو تواصياً بأذى ، أو سعيا مشتركا وراء غرض خبيث .

كما نحسبها تبعية ، ينماع فيها أحد الصديقين ليصير للآخر مجرد ظل ، ورديف .. !!

نحسب الصداقة كذلك .. وأسوأ من ذلك .. ونقيم علاقاتنا الناشئة عن هذا الفهم المغلوط ، على شفا هاوية .

حتى إذا زلّت الأقدام ، وهوت من تحتها الأرض الرخوة

صرخنا قائلين : يا أسفاً على الصداقة .. ويا ضيعة الأصدقاء ..!!

ولو فكرنا قليلا . لعلمنا أن الذى كنا فيه لم يكن صداقة . . وإنما كان ضربا من التسلية الفارغة ، والنفعية المرذولة ، واللقاء التلقائى .

أما الصداقة الحقة ، فهى أبقى على الزمن من الزمن نفسه . .

فإذا شئت أن تكون صديقا ، وتنعم بالأصدقاء ، فأدرك حقيقة الصداقة جيداً ، وهيء نفسك لحمل تبعاتها النبيلة : وصُغ نفسك على الغرار الذى تتطلبه الصداقة . .

ويومئذ ، لن تندب ندرة الصِّحاب ، لأنك ستجدهم كثيرا مباركين ..!

ولن تشكو غدر الأصدقاء ، لأنك ستجدهم أوفياء مُؤثِرين ..!

* * *

زود نفسك بفضائل الصداقة . وعبِّئها بهذا المدد الكبير من الحب والخير ، ونمّ فيها نزعة الإيثار حتى تتسع وتتراحب لإيلاف الناس جميعا ..

كن صديقا لمن تعرف .. ولمن لا تعرف . .

افرح لكل فوز شريف ، يناله إنسان ـ حتى إن كنت لا تعرفه ...

وتهلل لكل خير ينزل بساحة إنسان ـ حتى إذا كنت تجهله . .

وأسهم فى حل مشكلات الذين يدفعهم إليك الأمل فيك .. حتى لو لم تربطك بهم رابطة دانية ..

وتألم فى نبل للأسى الإنسانى ، حيث يكون ..

اجعل من نفسك « مرفأ » تأوى إليه الزوارق التائهة

الذى زلزل الإعصار والموج ثباتها ..

وليكن اسمك ـ مجرد اسمك ـ كنداء النجدة .. لا يكاد المفزعون يسمعونه حتى تسكن ضلوعهم الواجفة ، وتعود إليهم طمأنينتهم الضائعة ..

لاتحسبنى بهذا مبالغا فى رسم صورة الصديق ..

فالصداقة استعداد ، هذه أوليات سماته ..

والإنسان الذى لاتكون نفسه مهيأة للخير العام عامرة به ، هيهات أن تواتيه القدرة على أن يكون صديقا ، ولو مرة واحدة .. !

فالصديق رجل كبير ، لايعرف قلبه الحقد ، ولا يعرف ضميره عدم الاكتراث . ولا يضن على الناس كافة بما معه من رحمة ، وحنان ، ونجدة ..

والصديق ، « قارّة » كبيرة يجد النازلون بها رحبا ، وسعة . . وألوانا شتّى من المباهج والفرص الحرّة الكريمة . .

والصديق . لا تنعكس فضائله على الذين يعرفهم فحسب . . بل على ماحوله جميعاً .. كالشمس ترسل دفئها وضياءها لكل ما هنالك من حياة ، وأحياء ، وأشياء ..

تفيض بغير حساب ، وتعطى فى غير مَن ، وينال خيرها ، من تفصلهم عنها مسافات ، وأبعاد ، وعوالم . .

وكما أن الشمس لا تستطيع أن تقصر دفئها وضوءها على قوم ، وتحرم آخرين ..

وكما أنها لا تفرق بين أحد ممن تُعطى ..

وكما أن العطاء العميم الشامل ، هو طبيعتها ، وشيمتها .

فكذلك الصداقة تماما .. لاتقف بها علاقاتها الخاصة .. عن انطلاقاتها العامة .. ولا تشغلها النجوَى مع الأقربين عن عبور المسافات الطويلة ، باذرة خيرها ، ناشرة عبيرها .

إن كثيرين من الذين دأبوا فى ظلمة الليل ، ووقدة الحر ، على كشف دواء يشفى المرضى ، أو اختراع ييسر للناس وطأة العيش ، ويُذلل لهم طرائق الحياة ـ إنما كانوا مدفوعين برياح الصداقة العميمة للبشر جميعا ..

ولقد عبَّر أحدهم عن هذا المستوى الشامخ الرضى من الفهم حين قال مخاطبا زوجته : « دعينى أعمل من أجل أصـــدقائى الذين لا أعرفهم » .. !!

* * *

ذات يوم ، ورسول الله جالس مع أصحابه ، رنا ببصره الحانى صوْب الأفق البعيد فى هيام ووَجد ، وقال :

— « ياليتنى قابلت إخوانى » .. !!

فسأله أصحابه : يارسول الله ، ألسنا إخوانك .. ؟

فأجابهم : « بل أنتم أصحابى .. ولكن إخوانى ، قوم يأتون بعدكم .. يؤمنون بى كإيمانكم .. ويحبوننى كحبكم من غير أن يروْنى ، فياليتنى قابلت اخوانى » .... !!

انظر ، كيف اتسعت دائرة الشعور بالإخاء ، وبالصداقة .. حتى أدركت العوالم الوافدة من البشر ، والأجيال التى تفصلها حواجز الأحقاب والقرون ..

ذلك أن محمدا عليه الصلاة والسلام ، كان يحمل الاستعداد الكامل للصداقة الكاملة ..

والاستعداد فى هذا المستوى .. يكون كما أسلفنا كالشمس .. إنها قائمة ترسل الدفء والضياء ، فمن تعرض لأشعتها اغترف منها ، ونعم بها ..

كذلك الذين وُهبوا فضيلة الصداقة ..

علاقاتهم الشخصية لا تمثل كل المجال الذى تنشط فيه عواطفهم الطيبة .. وإنما تمثل نقاط التقاء ، أزجتها ظروفها ..

إن « السنترال » الكبير ، ينتظم آلافا من خطوط الاتصال التليفونى . ! فإذا عملت منها ألف واحدة ، فليس معنى ذلك أن طاقة « السنترال » هى هذه الألف وحدها . .

كلا ... فهناك طاقة كبرى ترعى آلافا أخرى من الخطوط ، تنتظر توصيلها . .

كذلك الصداقة الصادقة ، تتسع لكل قلب يريدها ، وتُعطى من ودها الصافى عطاء من لا يخاف خصاصة أو فقرا ..

* * *

نمّ هذا الفهم وهـــذا الحس فى نفسك . . وأقبل على الناس بروح صديق ..

وإذا التقيت بالذين ستجمعك بهم صلة الصديق القريب المباشر ، فضع فى عزيمتك أن تكون خير الصديقين ..

هناك وصية للرسول تقول : « كن خير ابنى آدم » . .

أي اجتمع اثنان ، وكنت أحدَهما ، فكن خيرهما ..

إن معظمنا يطبق هذه الوصية بعد أن يقلبها ، ويجعلها تقف على رأسها .. !!

فحين تجمع ظروف العمل أو الحياة بين اثنين منا ، يجتهد كل منهما أن يكون خيرا من الآخر ، مظهرا ، وأرفع منصبا ، وأكثر وجاهة ، وكبرياء ، وغطرسة..!!

ليس هذا ، ماتريده الوصية الكريمة : « كن خير ابنى آدم » . .

إنها تريد أن تسبق الآخر فى الإيثار ، والتواضع ، والبر ، والوفاء.

كان جماعة من الصوفية فى سفر ، وعند المبيت ، أقبل أحدهم يسألهم عن غطاء اشتراه للسفر وأعده للرحلة فقال : « أين غطائى » ..؟؟

فدهشوا . . وقالوا « غطاؤك » ؟؟ أوَلَسك غطاء ولنا غطاء ـ ؟؟ اعتزلنا . . . !!

لا أقول : إن هذه قاعدة عامة لسلوك عام .. لكنها إيماءة إلى اللشّبابَ الذى تنطوى عليه كل علاقة إنسانية صادقة ـ حيث يختفى التمايز ويفقد « ضمير المتكلم » حقه فى التوكيد على نفسه ، وتُنادى الصداقة ذويها وأهلها ، إلى مُباراة نبيلة فى الإيثار والمكرُمات . .

كن خير الصديقين إذن ، ولن تخسر شيئاً ، بل ستجنى أشهى ثمرات الوجود . .

واجعل أساس الصداقة بينك وبين من تُصادق ـ العلاقة الطاهرة التى تحدوها أسمى البواعث ، ولا تلوثها الأطماع الهزيلة .

* * *

واختر أصدقاءك ..

بقدر مايكون توقيرك للصداقة ،سيكون اهتمامك باختيار الصديق .

لقد قال الرسول : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يُخالِل » . .

إن اختيار الصديق . يُشكل فى حياتك أهمية بالغة . . ذلك لأن كُلاًّ منا : تنقص حياته جوانب ، كان يتمنى إدراكها . .

وكل منا ، كان يود لو استطاع أن يختار حياته . . يختار فضائلها ، ويختار ظروفها . .

أما ، وذلك غير ممكن ، فإننا نلتمس العوض عند الأصدقاء ، فنختار منهم ، الذين نستطيع أن نستدرك بهم مافات حياتنا من فرص الخير والتفوق . .

ذلك أن الصديق ، بحياته ، وبفضائله ، يصير امتدادا لك ، وتَتِمَّة لك . .

وإن حياتك لتتأثر به ، وتنعكس عليها كل مناقبه ومزاياه . .

فإذا اخترته ، وأحسنت اختياره ، كنت كأنك اخترت حياتك من أولى لحظاتها . .

فمزاياه التى تنقصك ، .. تصبح مِلْكا لكَ ..

والفضائل التى ضاعت منك فى زحام الحياة ، تعود إليك مع هذا الصديق ..!

والحياة السابقة التى كنت تود أن تحياها ، وتَسكُنها ، تقترب منك ، إذا اخترت صديقك على غِرارها ، ومن طرازها . .

وهكذا، فالذي يحسن اختيار أصدقائه، يضع يده على الحظوظ الوافية..

إن الصداقة، هى المرفأ الذى ننزل بساحته الآمنة بعد رحلة فيها مشقة وكبد..

وهى البهجة التى تزودنا بالقدرة على مغالبة الصعاب.

وهى ضوء الفجر الذى يذكرنا بأن الحياة تجدد نفسها دوما. وتبعث بأنفاسها العاطرة إلى الرُّقود المتعبين، فيخفون سِراعا ناشطين.

* * *

عند ما أرى صديقين ودودَيْن، يتبادلان النظرة الحانية، والكلمة الدافئة، ويتألق صفاء الأنفُس على وجهيهما فى مثل سَنَى اللؤلؤ.. أقول لنفسى: انظرى.. إن الحياة فى عيد..!!

* * *

وقد تسألنى: كيف أختار صديقى..؟

وأجيبك قائلا: استفت قلبك.. فأنت أدرى الناس بالصديق الذى تريده.. ولكن لا ينبغى أن تسمح للرغبات الرخيصة أن تستهويك مظاهرها، أو يضلك زيفها.

فاختر صديقك فى ضوء الانسانيات الرفيعة. فى ضوء القِيَم العليا التى لا يهبنا الخير مثلها، ولا يرفعنا عالياً سواها.

ليس معنى هذا، أن تنشد ملاكا لا يخطىء، فأنت فى أرض الناس، ولست فى أرض الملأ الأعلى.

إنما اهتداؤك بالقيم والإنسانيات الكريمة، سيتيح لك التعرف بأقرب الناس رَحِماً إلى الخير والنبل.

لا تختر الصديق لثرائه ، ولا لجاهه .

فالحياة كثيراً ما تسخر من أصحاب هذا الاختيار ، بأن تخبىء لهم في الطريق خيبة أمل عريضة ، تفاجئهم بها في قهقهة وشماتة ..!!!

إنما عليك أن تختار الصديق لثراء روحه ، وجاه خصاله ، وأناقة نفسه ، ووثاقة خلقه ، وتماسك بنيانه .

لا تختره مهذاراً ثلاّباً . . يسلّيك بالتندُّر على الناس ، فهذا الذي يهبط بحياتك إلى أدنى الحضيض . . والذي يقول اليوم « لك » فيضحكك . سيقول غداً « عنك » فيبكيك . !

لاتختره حاقداً .. شعار حياته « سحقاً للناجحين » ، فإن العواطف معدية ، وصحبتك لهذا التعس ، تجعلك مثله تعساً .

لا تختره من الذين يرون الحياة لهواً ، ولعباً ، وسيجاراً ، وكأساً . فإن الحياة في صحبة هؤلاء ، تتحول إلى نفاية ويباب .

إنمـا اختر الصديق الذي يرى في نجاح الآخرين ، نجاحاً له وحُسن ثواب .

اختر دافىء اللسان ، عفّ النفس ، ريّان الضمير . .

اختر من لحياته قيمة بما يبذل من جهد ، وبما يلتزم من واجب ، وبما يُمارس من دور عظيم . .

* * *

فإذا اخترت أصدقاءك ، فاذكر كلمة « هويتمان » : — « إن وراء كل ظفر يتحقق ، حاجة إلى الجهاد أشد وأعظم » . .

أجل . عندئذ قل لنفسك : لقد وجدت الأصدقاء ، والآن عليّ أن أحتفظ بهم . .

لا تكن كالذى ينقض غزله ، ويبنى ليهدم . .

إن الصديق القويم ، هو الجزء الغائب من حياتك . فإذا أعثرك الله عليه ، فاجعل من تمام شكره أن تحتفظ بهذه النعمة ، وترعاها ، ولا تدعها تفلت من بين يديك . .

إن الصداقة فى مجتمعنا رخيصة،وليس أهون علينا من التفريط فيها، وعدم الاكتراث بها ،

فتفوّق على هذا السَّفَه ، وكن واحداً من الذين يردون الأمور إلى رُشدها ونهاها . .

* * *

ولكى تحتفظ بأصدقائك . .

- ابذل من وفائك بغير حساب ، فالوفاء لا ينتقص بالبذل ، وإنما يربو ويزيد . . ولا تظن أن الوفاء مقايضة . . فهو يُسلم لك ، فتُسلم له . . وهو يُهدى إليك ، فتهدى إليه . . وهو يزورك ، فتزوره . .

إن هذه مع أهميتها قشور ، إذا لم تُفعم بواطنها بروح الوفاء . . وروح الوفاء ، معطاءة دائماً ، ومهيأة باستمرار لإرسال فيضها وسَناها . لا تسأل : إن كان الذى ستدثره بسموها . يستحق أولا يستحق.. لأنها تعبر عن نفسها ، وتتنفس طبيعتها الفاضلة .

- اذكر أن الصديق ، شخص آخر ، له شخصيته ، وله كيانه . . فلا تحاول أن تجعل منه تابعاً لك . . لا تحاول أن تفرض عليه رأيا

لا يقتنع به ، أو سلوكا لا يريده . .

وحتى إذا كنت متفوقا عليه فى بعض مزايا الخلق ، فلا يحملنك ذلك على دمجه فيك ، وصوغه على غرارك . .

لوّح بفضائلك أمام روحه فى رفق . . ودعها هى تقترب منها ، وتختر طريقة الأخذ عنها .

أما أن تحاول تغيير طباعه طفرة ، فهذا أقرب الطرق إلى أن تخسره . .

إننا نخسر الزهرة ، إذا تعجلنا نموها ، فقطعناها . .

أما حين نتركها فوق ساقها وجذرها ، تمتص عن طريقهما من الأرض الحياة ، فإننا نسمع صوت نموها فى غبطة وأمل . .

كذلك صديقك ، لا تتعجل نموّه بفصله عن ذاته ، وإلحاقه بذاتك أنت ، مهما تكن فاضلا ، ومتفوقا . . بل ساعده على توثيق عُرى وُجوده ، وإزجاء الظروف الطيبة التى تسمح لفضائله بالازدهار .

اذكر دائماً أن الصداقة مشاركة ، لا تلاش ، ولا ذوَبان .

وليس من عمل الصداقة إزالة التخوم الطبيعية القائمة بين شخص وآخر . .

إنما مهمتها ألا تتحول هذه التخوم إلى « خطوط قتال » . بل ولا إلى « خطوط هدنة » . . إنما تظل حدوداً مشتركة . وأرضا جامعة تترعرع فوقها صداقات عدة ، وعلاقات طيبة ، وتُؤْتِى كل روح هُداها . .

● ساعد صديقك على أن يهرع إليك بأسراره وهو مطمئن . .

فنحن جميعاً . تمر بنا تلك الأوقات التي ننوء فيها بأثقال أنفسنا.. ونبحث عن الإنسان الأمين الذي نستطيع أن نفرغ أمامه همومنا ، ونخرج له خَبء أنفسنا ، ونكشف له كل ذواتنا الباطنة . وشئوننا الخاصة . ونفتح له أبواب مملكتنا التي لا يعرف أسرارها أحد سوانا . .

وحين يسر إليك أحد بخاصة أمره . فهو في الحقيقة يدعوك لتحمل عنه بعض همه . . فكن نبيلا ، واجعل لسر صديقك حرمة وقداسة تنأيان بك عن كل تفريط في صونه وكتمانه .

إن حفظ السر أصدق دلائل الرجولة ، والقوة . .

والإنسان الذي يضع أسرار الآخرين على طرف لسانه الثرثار ، لا يساوي وجوده ، رسم « شهادة الميلاد » التي لا يملك من مظاهر الحياة سواها . . «!!»

● والصداقة ، كالكائن الحي ، تحتاج دوما إلى غذاء وريّ . . فلا تسلم علاقاتك الودودة ، للفتور أو الشك . .

تعهدها دائماً كما يتعهد البستاني الحاذق زهور الحديقة وثمارها .

اسقها بالكلمة الحلوة ، وبالبسمة الحانية ، وبالنظرة الصافية ، وبالمجاملة الصادقة ، وبالمشاركة النبيلة ، وبالثقة الوطيدة .

● والصداقة خلطة دانية ودائمة ، وكل خلطة بين اثنين عرضة للعثرة ، وسوء الفهم . .

فوطد نفسك على النسيان والصفح ، ولا تجعل أعصاب الصداقة مشدودة متوترة . . .

وطن نفسك على أن تكون للمعاذير عندك حرمة ، وللعثرات من تسامحك نصيب . .

وإذا اعتذر صديقك عن خطأ أتاه ، فتقبل اعتذاره بطريقة تنسيه خطأه . . ولا تلح عليه فى تذكيره بخطئه ، ولا تكن فى عتابه لجوجا . .

هناك وصية حكيمة . قالها الرسول عليه السلام :

— «من أتاه أخوه متنصلا - أى معتذرا - فليقبل منه ، محقا كان أو مبطلا » . .

بالله ما أروعها . . هذه العبارة الفاصلة : «محقا ، كان أو مبطلا» . !

ذلك أن الاعتذار ، يتضمن الاعتراف بالخطأ ، ويتضمن الرغبة فى مغفرته . .

فالذى لا يستجيب وجدانه لمثل هذا الموقف استجابة كريمة لا يكون إلا صاحب إنسانية متخلفة ، تتسم بالبلادة والجفاف .

● والصداقة ، اهتمام حافل بالرغبة فى الخدمة ، وإسداء العون . .

فلا تحمل همومك إلى صديقك ، ثم تعطيه ظهرك حين يحمل إليك همومه . .

لا تطالبه بالتفكير من أجلك ، وتخلى نفسك من مسئولية التفكير معه ، ومن أجله . .

لا تفض فى الحديث إليه عن نفسك ، ثم تنصرف عنه حينما يحدثك عن نفسه .

ولا تعامله كطفل ، فتجامله مجاملة تستر عنه أخطاء - يجب أن يتبينها ، أو تشبع فيه غرورا - يجب أن يتخلى عنه .

لا تخذل طموحه العادل ، ولا تثبط همته الواثبة . . ولا تتخلف عن نصرته حين يستنصرك ، ولا تجعله يفقدك حين يحتاجك . .

هناك نوع من الناس ، لا يمكن الاعتماد عليهم ، إلا حين لا تكون ثمت حاجة إليهم . . !!

فلا لاتكن واحداً منهم ، ولا تتخذ لنفسك صديقاً من بينهم . ، فعظمة الصداقة ، أنها تحمل مسئوليات لا تفرضها قرابة ، ولا دم ..

وإنها لتحملها فى غبطة تجل عن النظير .

ضع عينك على محاسن صديقك دوما ، وتحدث معه بشأنها ، وامنحها ما تستحقه من تقدير وتوقير .

* * *

وبعد .. فإن كل ما كتبته لك هنا عن الصداقة ، لخصه ، وربما زاد عليه ، إمام جليل من أئمة التصوف والهدى . .

ذلكم هو « السرى السقطى » رضى الله عنه ..

أتحب أن تعرف ما قال .. ؟

إليك عبارته التى لم يقل فى الصداقة ، أجمع ، ولا أمتع ولا أوجز منها ..

هاهى ذى : « لا تتم المحبة بين اثنين ، حتى يقول أحدهما للآخر : يا .. أنا » !!

ولعل من الخير ، أن نجعل هذه العبارة المضيئة ختام حديثنا عن الصداقة.

وإنه لختام حافل ..

وإنه لنعم الختام ..

اقرأ في غير خضوع ..
وفكر في غير غرور ..
واقتنع، في غير تعصب ..
وحين تكون لك كلمة، واجه الدنيا بكلمتك

لن تستطيع أن تكون إنسانا متطورا ، ناميا ، مستنيرا ، حتى تستعمل عقلك جيداً ..

وفيما حولك ، تكمن معارف ثرّة وحقائق كبرى ـ تنتظر العين التى ترى ، والأذن التى تسمع ، والبصيرة التى تفقه ..

والفارق بين إنسان يحيا الحياة ، وتحيا فيه الحياة ، وإنسان آخر يسمونه « ميت الأحياء » .. الفرق بين الاثنين ليس فى بهاء المظهر ، ولا فى تراكم الثروة ، ولا فى «شجرة العائلة» .. إنما هو فى ثراء العقل ، والروح ، والخُلُق .

والكون ، كتاب ربنا مفتوح لكل ناظر ، مُيسَّر لكل قارىء

ومن الأفذاذ الذين نرفع نحوهم أبصارنا فى خشوع ، كثيرون أخذوا معظم تراثهم العقلى والروحى ، من هذا الكتاب الكبير ..

نظرتك إلى السماء ونجومها .. إلى الأرض وزرعها .. إلى البحر إلى النهر .. تأملك الناس ، والأشياء .. لحظات الصمت المفكر التى تستغرقك فيها سبحات روح مُطلقَة .. كل هذه أضواء تتيح لعقلك أن يكون نافذة قيّمة على الحياة ..

والكتاب المطبوع . مرقاة كل إنسان حى إلى الكمال والتفوق .

والذى لا يُحيى عقله بالقراءة المستمرة ، يستحق العزاء ، والرثاء

فإذا كنت من الذين يقرءون ، فهنىء نفسك ، وطالبها بمزيد .

وإذا لم تكن . ، فأدرك مكانك فى القافلة ، قبل أن تذهب نفسك حسرات . .

إن الكلمة المطبوعة ، من أثمن ممتلكات الإنسان ، وخير ما أخرجت الحضارة الإنسانية للدنيا .

وصُحبة الكلمة المطبوعة ، هى الحظوظ الوافية .

ولو تخلت الحياة من متعة القراءة والفكر ـ لكانت عبئاً لا يطاق.

هل تعرف أول كلمة تلقاها الرسول من ربه .. ؟

« اقرأ . . . . »

إنه رسول ، عابد . . رسالته وعمله ، دعوة الناس إلى الإيمان بالله وعبادته . .

ولو أننا تصوَّرْنا أوْلى الكلمات بأن تكون بدء الوحى إليه ، لتصورنا أن تكون : صلِّ ، صم ، اعبد ، آمن . .

بيد أن الذى حدث أخلف الظنون ، وبَهر الألباب .

إذ كان أول تكليف تلقاه الرسول من ربه ، هى القراءة وأول كلمة ألقيت عليه ، هى : اقرأ . .

إن الله سبحانه ، يعلم بداية المعراج الذى يفضى بذويه إلى القمم الضاربة فى الأفق الأعلى .

يعلم نقطة البدء والانطلاق نحو كل عمل عظيم ، وغرض جليل ، ولقد أراد أن يدلنا عليها بهذه الكلمة التى استهلَّ بها الوحى إلى رسوله الكريم ، فقال : اقرأ . .

والحق أنه وراء كل عظيم ـ ولست أقصد بالعظمة هنا ذلك البذخ أو الامتلاء بماديات الحياة الدنيا ـ إنما أعنى العظمة الحقة التى تجعل من صاحبها معلماً من معالم الرشد الإنسانى . . .

أقول : وراء كل عظيم ، حشد كبير من الكتب التى قرأها ، وأعمل فيها فكره الوثيق . .

وحين تتتبع سير عظماء البشرية ، تجد الشغف بالقراءة ، كان السمة المميزة لطفولتهم ، ونشأتهم الأولى ..

لم يكونوا ـ على الرغم من حداثة سنهم ـ يبحثون عن الكتب التى يطالعونها . بل كانوا يهتدون إليها بسليقة ذكية .. كأنما كانوا مع هذه الكتب على موعد .. أو كأنما طالعوا «فهارس» المعرفة ، وهم فى أرحام الأمهات ، وجاءوا الحياة مزودين بسجل يحمل أسماءها ..!!

* * *

ترى هل أنت من القارئين ، الذين يحرصون على أن يعرفوا كل يوم جديداً ..؟

إنك ـ بوصفك إنساناً ـ مطالب بأن تقرأ كثيرا ، وتفكر كثيراً ..

وبوصفك من سكان القرن العشرين ، مطالب بهذا أكثر من أبناء القرون الخالية .

فالحياة اليوم تتفاهم مع الأحياء بلغة فصحى ..

أعنى أنها تتعامل معهم فى مستوى رفيع وبعيد ، من المسئولية والتجاوب .

والذين يسايرونها من مستويات أدنى ـ لا يحسنون صنعا ، ولا ينالون منها إلا النفايات . .

لهذا ، أقول لك : اقرأ . . واقرأ ، واقرأ دائماً .

فالقراءة : هى النور الذى يسعى بين يديك .

وهى الرئة . التى تتنشق بها الحياة .

والكتاب ، كما قيل ، خير جليس . وخير أنيس .

ودعنى أسألك سؤالا . .

لو استطاع العلم أن يرد إلى الحياة بعض الناس لبعض الوقت .

وأذيع ـ مثلا ـ أن سقراط ، وأفلاطون ، والغزالى ، وشكسبير ، والمعرى ، وتوم بين ، وروسّو ، وفولتير ، وابن رشد ، والفارابى ، وهيجل ، وماركس ، وجيته ، وأرسطو ـ سيكونون يوم « كذا » فى مكان ما من العالم . . وخلال الفترة التى سيقضونها أحياء ، سيستقبلون زائريهم ، ويتحدثون إليهم ، ويجيبون عن أسئلتهم .

أفلا تركب إليهم ثَبج البحر ، ومَخاطر الجو . وتنفق من ثروتك بسخاء . كى تبلغ مكانهم ، وتجلس إليهم . ؟ ؟

ألا فاعلم ، أن العلم قد ردّهم إلى الحياة فعلا . وأنهم وجميع إخوانهم المفكرين ، جالسون هناك . . ينتظرونك فى كل وقت . . وفى أقرب مكان . . وبأيسر نفقة . . ! !

أجل فى أى مكتبة من المكتبات المبثوثة ، تلتقى بهم . فى مؤلفاتهم .

لقد اخترع العلم الطباعة ، وصنعت الطباعة الكتاب ، وخلّدت بين دفّتيه أعظم تراث للبشرية كلها . وهو الفكر . .

واعلم أيضاً ـ أنك حين تجلس مع كتاب لأفلاطون ، أو شكسبير ، أو ابن خلدون . فأنت فى الحقيقة إنما تجلس مع هؤلاء فى أصفى ساعات حياتهم . وتفوز منهم بمغانم قد تفوق مغانمك لو كنت تجالسهم أحياء . . !

ذلك أنهم فى مجالسهم العامة ، يعطون ما عندهم مرتجلا ومختلطاً ...
أما حين كانوا يجلسون للكتابة ، فقد كانت عقولهم آنئذ
فى مستوى رفيع من الاستعداد ، والتألق ، والتفوق . .
وكانوا يغيّرون ، ويحوّرون حتى تخرج الفكرة التى يعالجونها ،
ناضجة ، وافية ، باهرة الأسلوب .
وهكذا كل كاتب تقرأ له ..
إنك إذ تقرأ له ، تجالسه وتزامله فى أصفى وأملأ ساعات حياته
وإنتاجه .
ومؤلف الكتاب الذى تطالعه ـ حاضر معك إذ تقرأ ، يتحدث
إليك من خلال السطور المطبوعة بخير ما أوتى من قدرة على التفكير ،
والتعبير ..
ترى أى الأمرين خير وأبقى .. ؟
جلوسك فى « مقهى » تمارس ما يسميه الناس « قتل الوقت » .. !
أم جلوسك مع سقراط ، وبرنارد شو ، وديورانت ، وشوقى ،
وحافظ . وأعلام الفكر من كل عصر ، ومن كل جيل .. ؟ ؟
أنا طبعاً لا أدعوك إلى أن تنسى حق نفسك عليك فى المرح
والراحة ، والتسلية . .
ولكنى أربأ بحياتك أن تذهب كلها تسلية .
وعزيز علىّ أن تعيش ما تعيش فقير العقل ، جوعان الفكر ،
وحولك من الكنوز ، ومن الأطايب ما يعرض نفسه عليك بغير ثمن ،
وبغير مَنّ ، وبغير حساب .. ؟

لقد أودع أساتذة البشرية تراثهم فى الكتب .. فلماذا لا تُنشىء مع هؤلاء الرجال الكبار صِلات .. ؟

لماذا لا ترتبط معهم بزمالة وصداقة .. ؟

لماذا لا تسعد نفسك وتشرفها بصداقة هؤلاء الذين أعلنوا رأيهم فى الحياة، واصطفاهم القدَر الإنسانى ليقولوا كلمته، ويسجلوا خُطاه .. ؟

اقرأ .. واقرأ .. اقرأ كثيراً ، واقرأ دائماً ـ إذا أردت أن تحيا ..

ولا تسألنى ماذا تقرأ .

فكل كتاب يزيدك معرفة ، عليك أن تقرأه .

ليس فى الثقافة حلال ، وحرام ..

وليس فى المعرفة مباح ، ومحظور ..

هناك ـ لا غير ـ كتب هزيلة ، تحمل هذرا ، وإسفافا ..

هذه ليست لنا على بال ..

إنما أنا أدعوك .. للمعرفة .. للثقافة .. وللثقافة والمعرفة عبير ، سيقودك إليهما ..

فكل ثقافة أقبل عليها ، وكل معرفة ، خذ من مناهلها .

اقرأ فى الأدب ، وفى السياسة ، وفى الأخلاق ، وفى الاقتصاد ، وفى العلم ، وفى الدين ، وفى الاجتماع ..

اقرأ فى كل شىء ، وعن كل شىء . وعش فى أوسع مساحة ممكنة من المعرفة والفهم .

وإذا كان لا بد لك من أن تقرأ ، فأكثر من لا بدّ ، أن تعرف كيف تقرأ ..

وإنى ألخص لك هذا فى عبارة وجيزة . هى ذى :

— اقرأ فى غير خضوع — .. .

إن الكلمة المطبوعة سلطانا عظيما ، و مالم تحتفظ بثبات رشدك ، واستقلال عقلك وأنت تقرأ ؛ فستحملك على أجنحتها بعض الكلمات الآسرة ، وتلق بك فى متاهات ، يصعب العثور عليك فيها ..!

فاقرأ قراءة الأحرار ، لاقراءة العبيد ..

اقرأ ، لتكتشف نفسك ، لا لتفقد نفسك ..

اقرأ لتتبين الطريق ، لا لتصير إلى ذرة تائهة فوق الطريق ..

اقرأ ، وناقش ما تقرأ ، واحتفظ باستقلالك الفكرى ، ولاتجعل إعجابك بالكاتب ينسيك أنك إنسان مثله وأن من الممكن أن يكون تحت سطح دماغك ، كنوز تفوق كنوزه ..

لا تستسلم لكل ما تقرأ ، ولا تستسلم لإغراء الكلمة ، فثمّت كلمات تقرر من غير أن تدرى مصيرك كله ..

فإذا كانت من الكلمات الجانحة ، أصابك منها ضرّ كثير ..

والكتّاب الذين يكتبون أفكارهم بأسلوب ساحر آسر ، سر معهم فى أناة .. أنهم جديرون بشكرنا وثنائنا ، وإعجابنا ، لاريب ، ولكن اذكر أنهم مهما يحلقوا عاليا . فلا ينبغى بحال أن نتلاشى فيهم .. أو نذوب خلالهم ، أو نتبعهم صما وعميانا ..

ليس معنى هذا أن تقرأ وأنت تقاوم ، أو تطالع وأنت توسوس ...

ويأخذك فى كل كلمة شك وارتياب .. لا .. دع عقلك على سجيته ، وسيرتب هو أموره .

وعندما تحس وأنت تقرأ بمثل حركة الرادار ، فقف ..

إن عقلك قد وجد نفسه هنا .. وإنك الآن أمام كلمة أو عبارة تحمل لك فَيْضا من الأسرار والأفكار إذا أنت تدبرتها ونحيت الكتاب جانبا لتتأمل هذه العبارة التى اهتز عندها وجدانك ، واختلج عقلك ..

لا تهمل هذه الومضات التى تواتيك وأنت تقرأ .. فإنها مفاتيح كنوز جليلة .

عندما تبلغ عبارة ، تمس روحك مس الكهرباء ، وتحس فيها شيئاً يستوقفك ويبهرك ، فنحّ الكتاب قليلا ، وأصغ لما توحيه إليك ، وفكر فيها . فإنها ستفتح بصيرتك على عالم من الأفكار جديد .

وهذه مزية القراءة .

فنحن لا نقرأ لنزيد معلوماتنا ، وننمى معارفنا فحسب ، بل نقرأ ، لأن القراءة تلهمنا ، وتطل بنا على أفكار عذراء تنتظرنا لنكتشفها ونضيفها إلى تراث الفكر الإنسانى .

وكأىّ من مخترع ، أوحى به لمخترعه ، مثل هذه العبارات النابضة .

وكم من روائع فكرية ألهمها كاتبوها ، حين استجاشت حماسَهم العقلى عبارة مضيئة قرءوها ، أو حرّكت رصيدهم الفنى ، لفتة من لفتات الفكر الخلاّق .

كأن هذه العبارة ، أو هذه اللفتة ، « عصا المايسترو » لا تكاد تتحرك . حتى ينطلق العازفون فى عزف لحنهم المحفوظ . !

إن فى عقلك الباطن ، كثيراً من الرؤى والتجارب ، تنتظر عارضا يسيراً يدفع بها إلى وعيك .. قد يكون هذا العارض كلمة تسمعها ، أو مشهداً تراه ، أو عبارة تستوقفك فى كتاب .

فلا تقرأ ، وأنت غافل ساه .. بل طالع فى يقظة . وتفتّح ، ومتابعة . وهيىء بصيرتك لتلقّى ما تفيئه الكلمة المسطورة من حكمة وإلهام .

* * *

وإذا قرأت ، ففكر ..

لقد ضرب الله للحقيقة مثلا ـ أولئك الذين حرموا نعمة الفقه ، والتفكير .. فقال تعالى : « جعلنا لهم سمعا ، وأبصارا ، وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ، ولا أبصارهم . ولا أفئدتهم من شىء » .. ! !

فعش مفكرا ..

لقد تعودنا أن نطلق وصف المفكر على أولئك الذين يحولون المجهول إلى معلوم ، والغموض إلى وضوح .. الذين يقدمون إلينا عقل الحياة ..

وهذا حق ..

ولكن من الحق أيضا ، أنك تستطيع أن تكون واحدا من هؤلاء حتى لو لم تؤلف وتكتب ..

أو تستطيع أن تغنم من التفكير ، وتظفر من مزاياه بما يرفعك ـ مهما يكن حظك منه ـ إلى مستوى « إنسان مفكر » ..

ذلك أن مزية التفكير أنه يؤكد وجودك الخاص ويهبك وجهة نظر خاصة بك تجاه الحياة ، وقضاياها ..

فإذا نمت وجهات نظرك هذه إلى حد يدعو لبروزها ، والتعبير عنها ، وجدت نفسك مسوقا لأداء هذه المهمة فتكتب ، أو تتحدث :

وفى أى مستوى من مستويات البلاغ كنت ، فأنت مفكر ، مادمت قد فكرت فعلا ، وكونت لنفسك بنفسك وجهة نظر جديدة ..

إن « سقراط » لم يؤلف كتبا .. ومع هذا ، فهو فى الصف الأول دوما ، والمكان الأعلى بين مفكرى البشرية كلها ..

لماذا ، وهو لم يؤلف كتابا .. ؟

لأنه عاش مفكرا ، وعكس على الحياة صورة تفكيره ، وبذلك استطاع أن يؤلف مكان الكتب ، جيلا من الفلاسفة ، لايزال الفكر الإنسانى ، وسيظل يقبل على موائدهم مفتوح الشهية ..

و « جمال الدين الأفغانى » ، لم يؤلف كتبا ـ عدا رسائل يسيرة محدودة .. ومع هذا فقد ملأ الدنيا ، وشغل الناس ..

ولم يكن ينزل فى بلد ميت ، ويقضى تحت سمائه بضعة أشهر ، حتى تقوم فى هذا البلد ثورة ، أو يسقط عرش ، أو يكتب تاريخ ..

لم يكن يصنع أكثر من أن يدير خواطره الذكية على مشاكل الناس ، والدنيا .. يقرأ ، ويفكر ، ويقرر .. ثم يجلس إلى حلقات من مريديه . يتحدث إليهم ، ويودع قلوبهم شجاعته ، وعقولهم حكمته وهم بدورهم يفكرون .. ويقررون .. وتنتقل العدوى النبيلة الطيبة شيئاً فشيئاً . حتى تتحول إلى قدر يبلغ أمره ..

و « توم بين » حين نزل أرض الولايات المتحدة ، وهي يومئذ مستعمرات بريطانية ، أتاها جائعا عريانا ، مزودا بوصية إلى أحد سكانها الأثرياء ، ليجد له عملا يعيش من كفافه . . فإذا هو بعد هبوطه الأرض الجديدة بثلاثة أعوام ، لا غير يشعل فيها ثورة الاستقلال التي حررتها إلى الأبد . .

أيّ سر كان معه . . ؟؟

هذا الفقير المعدم العاطل . . !!

لقد قرأ كثيرا ، وفكر كثيرا ، وكانت أفكاره تنمو داخل نفسه حتى جاء ميقات ميلادها ، وتهيأت لها ظروف كبيرة جليلة ، فخرجت كبيرة جليلة . .

وهناك بين الناس المستعبدين المضطهدين ، جلس وكتب بضع صفحات أسماها « الفهم » أو « حصافة » لخصها وجهة نظره التي كونها تفكير طويل ، وأعانت عليها قراءات كثيرة . . وقرأ سكان الولايات جميعا هذه الصفحات ، فإذا هم ينطلقون كالإعصار . وإذا النار المقدسة تتأجج ، وراية الحرية تخفق . .

ويرتل الناس كلمات « بين » وأفكاره في كل مكان ـ في البيوت . . في الشوارع . . في المدارس . . في الميدان . . تحت ضربات المعركة . . وفي مراكز تموين القوات المحاربة . . . الصبية ، والشبان ، والكهول .

* * *

فكر إذن ، وفكر دائماً ، وحوّل عقلك في كل اتجاه ؛ فإنك لا تدري أي عملاق رابض تحت ضلوعك .. فكر ، لا لتكون

« سقراطا » ، أو « توم بين » أو « الأفغانى » وإن كان من الممكن أن تكونه .

وإنما لأنك إنسان ، ومن ضرورات إنسانيتك ، أن تكون مفكرا »، وأن تكون لك وجهة نظرك ، تجاه عالمك ، وتجاه كل قضايا الحياة ..

ولكن ..

— فكر فى غير غرور — ...

ليس هناك أحد ، فيلسوفا كان أو عبقريا ، يملك وحده الحقيقة ، ويعرف وحده جميع الصواب .

إن الناس لم يختصروا فى واحد .. والحقيقة لم تحبس نفسها فى دماغ .. !!!

كل فكر يرى الحقيقة من جانب ، ويكشف منها عن جزء ..
وكل تفكير مهما يكن شامخا ، فليس سوى شمعة فى « شمعدان » بل « شمعدانات » كثيرة ، ترسل معا ، الضوء الذى يعين على رؤية الحق شيئاً فشيئاً ..

فمهما يفتح الله لك من رحمة وحكمة ، لا تدع الغرور يستحوذ عليك .
إن الغرور عزاء تقدمه الطبيعة لصغار النفوس ، فلا تكن صغير النفس ..

واذكر أن آفة كل تفكير سديد ، هو الغرور ، الذى يأخذ ضحاياه بعيداً من الصواب ، ويعزلهم دون أن يدروا عن مجال المعرفة والفهم .

لقد كان شعار العالم الرياضي الكبير .. «لا جرانج» .. هذه الكلمة الباهرة ـ « لا أعرف » .. !

و « نيوتن » ، وأنت تعرف مَن نيوتن .. كان يقول :

« إني أتراءى لنفسي ، كما لو كنت غلاما يلهو على شاطىء البحر ، وأسلي نفسي بين الحين والحين بالعثور على حصاة أكثر ملاسة ، أو صدَفَة أكثر جمالا .. بينما محيط الحقيقة العظيم يمتد أمامي دون أن أعرف عنه شيئاً . » ! !

ففكر حين تفكر ، دون أن تتخلى عن فضيلة التواضع ، ودون أن يأخذك الغرور بعيداً عن حقيقة نفسك .

* * *

وإذا فكرت في حصافة وسداد ، وجدت تفكيرك هذا ، يصدر قراراته تباعا في كل موقف ، وفي كل واقعة .. ووجدته يكوّن لك فلسفتك التي تقتنع بها ، وعقيدتك التي تؤمن بها ، وآراءك التي تدافع عنها ..

وستقول في اعتزاز : هذا رأيي .. وهذه عقيدتي ..

حسن هذا ، فلابد أن يكون لك رأي ، ولابد من أن يكون لك اقتناع تؤدي واجباتك حسب مقتضياته .

لكن اذكر دائماً ، أن رأيك ، أو اقتناعك ليس هو الحق كله لأن واحداً بمفرده لا يستطيع أن يعرف الحق كله ..

إن رأيك في أعلى مستويات صدقه وحذقه ، يمثل وجهاً من وجوه الحقيقة .. وهو ـ إذا صادف الصواب ـ تفسير صحيح للمسألة التي

يعالجها . لكنه ليس التفسير الأوحد ، ولا التفسير النهائى .

ضع فى يقينك ، أنه لا أحد مصيب كل الصواب ولا أحد مخطىء كل الخطأ .

ومن ثم ، فالحقيقة لا يملكها عقل واحد .. وإنما تهدى إليها جميع العقول العاملة فى سبيل الوصول إليها .

والإنسان الرشيد ، هو الذى يسعى لرؤية الأشياء كما هى . لا كما يريدها .

وكل هذا يقتضى أن ترفض التعصب .

فاذا اقتنعت بقضية ما ، فليكن اقتناعك ثمرة الفهم ..

لقد انتهت تلك العهود التى كان شعارها « لكى تفهم ، يجب أن تؤمن » .. وجاءت عصور ، شعارها .. « لكى تؤمن ، يجب أن تفهم » .

فكل إيمان لك ، يجب أن يكون ثمرة فهم ، وتفكير ، واستقصاء وما دام سيكون كذلك ، فجدير به أن يظل على ولاء واحترام للقوة التى أنجبته وأثمرته ـ وهو العقل . أجل ـ ما دام إيماننا ثمرة العقل والتفكير ، فأولى واجباته ، أن يظل مستعداً لسماع كلمة العقل والتفكير .

إن الذين يتعصبون ، هم الذين يؤمنون إيماناً أعمى .. إيمان وراثة ، أو عدوى ، أو تقليد ..

وهم يتعصبون لما عندهم ، لأن التخلى عنه يتطلب منهم جهدا عقليا ، هم أعجز من أن يقدروا عليه .

ويحسب المتعصبون أنهم أقوياء الإيمان ، بيد أنهم واهمون ، لأن الإيمان القوى الرشيد يحمى نفسه بالتسامح والفهم ، بينما يبحث الإيمان

الضعيف المهلهل عن سناد من التعصب والجهل يحمى بهما بناءه المتداعى .!

إننا فى عصر يستمد من عمليات المعرفة ، حقائقه ، ومذاهبه .

والمعرفة ترفض التعصب رفضا مطلقا

لأن غاية المعرفة ، الوصول إلى ماهو حقيقى

والطريقة الوحيدة لمعرفة ماهو حقيقى ، اشتراك جميع العارفين فى الكشف عنه .. وهذا يتطلب أن تطرح جميع مقدماته وقضاياه فى حلبة الجدل ، وفى مجال النقاش والفحص ، ويقتضى ألا تحوط وجهة نظرك بتقديس خاص ، يذود الآخرين عن مناقشتها . . فقيام فكرة عظمى ، فى وجه فكرة عظمى نظيرها ، هو ماتريده الإنسانية ، وما يمليه الرُّشد .

ولنذكر أن التقدم الإنسانى ، كان سيحقق أضعاف انتصاراته هذه ، بمجهود أدنى ، وضحايا أقل .. لو أن الناس تعودوا من عهد بعيد أن يفكروا فى غير هوى ، ويؤمنوا فى غير تعصب .

ولنذكر أن أفضل مكاسبنا الحضارية ، يتمثل فى النمو الخلقى الذى يحل التسامح مكان التعصب ، والفهم مكان المغالطة ، ونشدان الحقيقة مكان سيادة الهوى . . .

* * *

نحِّ التعصب دائما عن عقلك وقلبك . .

ولا تقتنع بالأشياء التى لنفسك إليها هوى . . ثم تذهب باحثاً عن البراهين التى تثبت صحتها . .

لكن ابدا بالبراهين أولا .. ودعها هى تهديكَ إلى النتائج القوية ، والأحكام السليمة .

لا تكن كالقاضى التركى القديم ، الذى كان يحكم على المتهم بالإعدام . ثم يقول وهو يفتل شاربه ! « والآن نناقش الشهود » ..!!!

ناقش الشهود أولا . . استعرض البراهين ، والمقدمات ، والشواهد .. وتأملها .. واقرأ معظم إن لم يكن جميع وجهات النظر التى أبديت فى الموضوع .. ثم اختر فى أناة ، وبغير تحيز رأيك أنت ، واقتناعك أنت ..

فإذا اقتنعت بشىء ما ، فلا تُعط اقتناعك صفة الخلود .

فلا مكان اليوم . للأحكام النهائية ..

العلم يكشف كل آن جديدا . ولا يفتأ يعلمنا أن الجمود انقراض . وأن التعصب جهالة .. فكن مهيأ دواما للسير فى موكب الحقيقة الجديدة ..

لا تكن من الذين يقولون : إمَّا .. وإمَّا .. هؤلاء الذين يحسبون أن الشىء إما أبيض .. وإما أسود . . ولا ألوان أخرى هناك ..

كلا . . هناك « إمَّا » الثالثة . . وهى تتكرر إلى مالا نهاية . .

فابحث وراء هذا الفيض من الاحتمالات ، ولا تطحن نفسك بين شقىْ رَحى . . إما . . وإما . .

ليس معنى هذا أن تقضى عمرك تائها بلا مرفأ . . وليس معناه أن تعتزل الحركة الراجحة فى تيار الحقيقة والصدق . .

إنما معناه أن تبلغ هذه الغاية بجهد البصير ، لا بتواكل الأعمى . . وتحتفظ باستقلالك الفكرى . حتى إذا بزغت من بين الآراء

المتفاعلة حقيقة جاء ميعادها ، سِرْت تحت رايتها مع السائرين على بصيرة وهدى ..

وتجنبك التعصب للفكرة ، يعني ترك التعصب لصاحبها .

ولكي تختار آراءك اختيار الراشدين الأحرار . سيكون لك حق مناقشة الآخرين ..

ومهما يكن هؤلاء الآخرون ، فلا تتلق منهم « الأحكام الجاهزة » بغير أن تمرّ في أنبوبة الاختبار الخاصة بك ، وهو عقلك ..

تعلم من جميع المعلمين .. ولكن تعود أن تلقاهم في أفكارهم لقاء النِّد القدير . لا لقاء التابع الضرير ..

ادرس آراءهم ، وناقشها .. فإذا اقتنعت بها فخذ مكانك إلى جوارهم ، وارفع رايتك إلى جوار راياتهم - وستكون آنئذ سائراً وفق رأيك . الذي وافق آراءهم ..

أجل : . ستكون سائراً وَفق رأيك أنت ، وإن كانوا هم الذين دلوك عليه ، وهَدوك إليه .

ذلك أنك لم تتقبله مغمض العين . بل أدرت عليه خواطرك ، وقلبت وجوه رأيك ، وعانيت اكتشاف ما ينطوي عليه مِن صدق . وتركت عليه طابعك .

وهذا كله يجعلك صاحب حق في أن تقول : هذا رأيي ..

وهذه مزية التفكير ، والاختيار ..

إنهما يعلنان سيادتك ، ويحررانك من عوامل التبعية والخضوع .

* * *

فإذا قرأت في غير خضوع ..

وفكرت فى غير غرور ..
واقتنعت فى غير تعصب ..
وأراد اقتناعك هذا أن يعبر عن نفسه بكلمات : فقلها بقوة وإبانة ..
انطق بما تقتنع به فى غير فأفأة ، وفى غير هروب . .
واجه الدنيا بكلمتك ، ولا تقل : من أنا ..؟؟
فمعظم ما فى عالمنا من حقائق ، ومبادىء ، إنما بدأت بكلمات قالها أفراد ..
كل مبدأ عام ، يؤمن به الناس اليوم ـ إنما كان دعوة رجل واحد .
وكل طريق عام تمضى عليه أجيال البشر ، إنما اكتشفه فرد ، أو أفراد . لا يزيدون عنك ـ إن زادوا ـ إلا بما بذلت عقولهم من جهد ، وما تحلت به إرادتهم من شجاعة ..
فهات كلمتك ، ولا تخجل ، فلعلها حقيقة جديدة ينتظرها التقدم الإنسانى ، وقد جاء موعدها .
لا تحقرَنَّ من تفكيرك السديد شيئاً ، فإنك لا تدرى ما ينطوى عليه من عطاء ..
إن الرجل الذى قال « الأرض تدور حول الشمس » لم يكن فى حسابه يوم قال هذا ، شىء مما ترتب على كشفه فيما بعد من فتوح ومعجزات .. ..
والرجل الذى حاول أن يصطنع لنفسه جناحين يطير بهما منذ قرون بعيدة ، ولما سقط قال : « سيفعلها القادمون بعدى »..!!
لم يكن يدرى أنه بهذه الكلمات العابرة والمحاولة الساذجة .

إنما يصدر القرار الذى سيمهره العلم ـ فيما بعد ـ بتوقيعه .

هل تعرف ماذا فعل الرسل ، وماذا فعل كل الرواد الذين صاغوا مصير الإنسان ؟

لا شيء سوى أن قالوا كلمتهم ، ووقفوا بجانبها . .

فقل كلمتك . . إن الحياة تنتظرها . .

لا تظن أنك جئت إلى العالم متأخراً . . أو أن الحياة الإنسانية قد سوّت مشاكلها .. وأتمت أمورها ، ومن ثم لم تعد بحاجة إلى من يقول أو يفكر أو يعمل ..!

قل كلمتك فى أيسر الأمور، وأخطرها ..

قلها .. فإن تك خطأ ، صححت خطأك .. وإن تك صوابا ساعدت الآخرين على الاقتراب من الحق ..

وإن تك عما لا يتفق والسائد المألف ، فقلها أيضا ..

سيتهمك الناس بالتمرد .. ! أليس كذلك .. ؟ ؟

ألا فاعلم أنه لم يمر بأرض الناس هذه ، عظيم مبدع .إلا بدأ فى أعينهم متمرداً ، وانتهى إماما ورائدا .. !

انطق بما يدور فى خلدك ، فلو كبت كل إنسان فى نفسه مايراه حقا لفسدت الأرض وانقرضت الحياة .

إن بين يدى ثورات الحرية والحق فى كل زمان ـ كلمات هتفت بها . ولولاها ماقامت هذه الثورات ..

وبين يدى كل الإصلاحات الشاهقة ، كلمات دعت إليها ، ولولاها ، ماكانت هذه الإصلاحات ..

وقوى الظلام لا تطمع فى شىء أكثر من إسكات الكلمة المضيئة ..
إن أعداء محمد . لم يكونوا يريدون منه سوى السكوت ..
وأعداء المسيح . لم يكونوا يريدون منه سوى السكوت ..
وجميع الذين علمونا ، وأيقظونا ، وكشفوا مجاهل حياتنا ،
رفضوا أن يُقايضوا على حقهم فى القول ، بكل ما فى الدنيا من
كنوز ، وتيجان ..!!

حقاإنه «فى البدء كان الكلمة» ..وستبقى الكلمة أبدا ،الرائد،الدليل..
إن ولاء للحياة للكلمة . ليفوق كل ولاء .
انظر .. كم من سكان الكرة الأرضية اليوم وقبل اليوم يعرف
اسم الملك أو الحاكم الذى كان يحكم «أثينا» أيام أفلاطون ..
إنهم قلة لا تذكر . . . ولكن تسعة أعشار سكان الكرة الأرضية
يحفظون اسم « أفلاطون » حتى الأطفال فى المدارس . . .
كم واحدا من العالمين ، يذكرون أو يعرفون اسم القيصر الذى
كان يحكم روسيا أيام « تولستوى » .
إنها قلة ضحلة ..

أما الذين يعرفون تولستوى ، ويقرءون له .. فمئات ملايين
تنادى مئات ملايين .. !!!

هذه عظمة الفكر .. وعظمة الكلمة . .
فقل كلمتك إذا كنت من المفكرين والكتاب ..
وقلها إذا كنت من غير المفكرين والكتاب ..

لا تكن من الذين يخافون أن يقولوا كلمتهم ، وينتظرون أن يسمعوها من غيرهم ..

* * *

ولكن اذكر أنني أقول لك ، قل كلمتك .. لا ، افرض كلمتك ..

فالطريقة التي تقول بها كلمتك ، وتعرض بها فكرك ، لا تقلّ أهمية عما في كلمتك من حق وقيمة ..

هناك أناس يتكلمون ، كأنهم آلهة

ويعرضون آراءهم وأفكارهم . وكأنهم يقولون : « آمَرْنا بما هو آت »..!!

لا تكن من هؤلاء أبداً .. ولا تخاطب غيرك من فوق منصة الأستاذية .

وخير غرض تتوخاه بكلمتك أن تزيد بها عدد الأحرار ، لا عدد العبيد .

وذلك يقتضي :

أن تقولها .. لا أن تفرضها ..

وأن تحاول بها الإقناع .. لا الإكراه

والهداية .. لا السيطرة .

وعندئذ قلها بصوت راسخ .. فإن الحياة تنتظر سماعها .

تَقَبَّلْ وُجُودَكَ، وَطَوِّرْه ..
وَاخْتَرْ حَيَاتَكَ، وَعِشْهَا ..
وَابْقَ إِلَى النِّهَايَةِ حَامِلاً رَايَتَكَ

وُلد لأحد الحكماء الأقدمين ولد . فبكى ..

قيل له : ما يبكيك .. ؟

قال : الآن مات .. ! !

حكمة مناسبة لكى نبدأ بها حديثنا هذا . .

فنحن حقا يصبح الموت قدرنا المحتوم منذ اللحظة التى يتلقانا فيها المهد.

أى أن كلاً منا يجىء الحياة : ومعه بطاقة .. مكتوب فى أعلاها ، « وُلد » .. ومكتوب فى أسفلها . «مات» ..

بيْدَ أن رحمة الله وحكمته ، تحجبان عنا الكلمة الأخيرة ، لتتم بهجتنا بالوليد ، ولنظل فى تفاؤل يمنحنا حوافز الحياة ..

أما ذلك الفيلسوف ، فقد قرأ الكلمتين معا حين بشروه بوليد ، فبكى . وقال : الآن مات .

لأنه ما دام قد وُجد ، فهو حتما سيفقد . . !

وأنا أحب أن أتصور القصة فى وجهها الآخر .

أتصور الحكيم يضحك ..

فإذا سئل ، لماذا يضحك .. ؟

أجاب : الآن وُلد . . ،

لست أعنى الطفلَ طبعا ..

وأنا أعنى .. الفارس .. الذى يتضمنه الطفل .. والوجود الضخم الذى يُمثله هذا الوليد ..

انه لشىء مسلٍّ ، ومحير معا ، أن تبصر ميلاد طفل فى ظل هذا الشعور وهذا التفكير ..

لقد أتيح لى ذلك أكثر من مرة .. وكنت كلما أهلَّ الوليد صارخا ضحكت ..

لا تحسب أنى بهذا أنتحل صفة الحكماء .. !

تُرى ما الذى كان يضحكنى .. ؟؟

كنت أنظر إلى قطعة اللحم الحمراء التى لا تكاد تملأ راحتى القابلة .

وأقول لنفسى : ها ، مغامر جديد جاء يجرب حظه .. !!

وإنه ليصرخ ، ليخبر الدنيا بقدومه ، ولتفسح له مكانا سريعا كأنما ليس لديه وقت للانتظار .. !!

وأتأمل مشهده ، وهو يضطرم فى حركة وعنفوان .. يركل بساقيه ويلوح بيديه . فأكاد أقول له : صبرا يا أخانا ، فالعالم فى مكانه لن يريم ، والأرض ساكنة لن ترحل . . صبرا وسيجىء دورك . . !

* * *

الحقيقة أن كل ولادة ، حادث عظيم . . وأن كل مولود ، حياة هائلة تقمصت جسدا لتلعب دورها عن طريقه .

كل ولادة ، وكل مولود لها هذا الشأن ، خاصة حين تستعرض الأفذاذ الأعلام الذين اختارتهم الأقدار من بين الأكواخ المعدمة .. وتلقتهم الحياة يوم يولدوا فى مهود خشنة من ورق العشب ، أو مِزَق الأسمال البالية ..!!

أجل ، عندما نستعرض الحشد الجليل من رسل الله ، وقادة الأمم ، والمبشرين بالحق والخير ، وعباقرة الفكر ، والفن ، والعلم .. ونرى

الأكثرين منهم تختارهم العناية من بيوت فقيرة ، لا تقع عليها العين في زحام الحياة ـ نقول : حقاً إن لكل ولادة شأواً ، ولكل مولود نبأ ..

فمن يدرى كنه القوة الكامنة في هذه القطعة الملساء من اللحم ، ومن يدرى أى دور هائل سيؤديه هذا الوليد .. !!

ولكن لنبدأ من البداية ..

قلنا : إن الحكيم بكى لميلاد ابنه ، وقال : الآن مات . .

وقلنا : إن هذا سر الحياة ـ كل من يفد إليها يوما ، يرحل عنها في يوم آخر . .

كلنا نعلم هذه الحقيقة ، فهل حملنا هذا اليقين على كره الحياة ..؟

هل حملنا يقيننا بأن الموت مصير كل حى . على أن تتكف عن طلب البنين والبنات ، والفرح بميلادهم ، وبحياتهم أعظم مايكون الفرح والابتهاج.. ؟؟

كلا ، وإننا لنحب الحياة . . ونحب أن يكون لنا فيها نسل ، مع علمنا بالمصير . .

وإذا كنا نتقبل مبدأ الحياة ونحن نعرف نهايتها .. ، فيجب أن نتقبل نوعها .. على أى وجه يكون .

نحن لا نجىء الدنيا فى ظروف واحدة ..

فهناك الغنى ، والفقر ، والصحة ، والمرض ، والتقدم ، والتخلف ..

ولكل منا مهد يتلقاه ، ويصوغ أوليات وجوده . وخامات مصيره ـ حسب ظروف البيئة ، والإمكانيات المحيطة بهذا المهد ..

وإذا تصورنا الحياة سباقا ، فنحن لا نبدأ السباق من نقطة

واحدة .. وهذا أحد الألغاز الكبرى التى تنطوى عليها الحياة .!!

ولكن إذا كنا لا نبدأها من نقطة واحدة ـ كما يبدو ـ فإن التعويض سر آخر عجيب من أسرار حياتنا .

وما أكثر الذين تقتضى ظروف حياتهم أن يتخلفوا ، أو يسيروا فى بطء ، بيد أن قوى هادرة تتحرك داخل أنفسهم ، حين تضغط إرادتهم على محرك هذه القوى فإذا هم سباقون لا يدرك لهم شأو ، ولا تنالَ لهم خطى .. !!

فنقطة البدء إذن لاتهم فى تقرير المصير ، بقدر ماتهم طريقة السير.

فأيا ما تكون ظروف نشأتك فعليك أن تتقبل وجودك ..

هذه هى الخطوة الأولى الحكيمة فى السباق الذى تربح فيه حياتك.

* * *

تقبل وجودك فى طمأنينة ، وغبطة ، كائنا ما يكون هذا الوجود..

حين تقع فى يدك قارورة ثمينة ، بها ماء آسِن ، فأنت لا تحطمها بسبب ما فيها ، وإنما تفرغها ، وتغسلها جيداً ، وتملؤها بالعطر الذى تريد .

ووجودنا ، فى التشبيه البسيط له ، قارورة ثمينة ..

كل وجود حى له قيمته ، وله نفاسته .

وأنت تتسلم وجودك ، مملوءا بمالا حيلة لك فيه من ميراث الآباء، ورواسب الخلق ..

وعلى أى صفة يكون ، فهو وجودك ، تذهب يميناً أو شمالا .. تتخذ لك نفقاً فى الأرض أوسلما فى السماء ، لامفرلك منه ولا مهرب .

هذا إذا تصورت وجودك تصوراً مغلوطاً متشائماً ، فحسبته غرما لا غنم فيه ..

على أن الأمر ليس كذلك أبداً .. فكل وجود مهما تكن ظروف نشوئه ، ينطوى على قوى باهرة ومقادير عظمى .

ولقد ضربت لك مثلا ـ أساتذة البشرية التي تسلموا وجوداً فى مستوى عادى .. وجوداً محوطاً بصعاب قهروها واتخذوا منها مزية ومعراجا .. !

كما أن هناك ، كثيرين تسلموا وجوداً محفوفا بالنعم والمباهج ، وكافة الظروف المساعدة ، ومع هذا فقد تحطموا على أول الطريق ، ولم يصلوا بوجودهم ذاك إلى شيء — أى شيء . .

إن الدفة بأيدينا ، والربان القدير يحسن التفاهم مع الريح ، ومع الموج — فيتم رحلته فى عافية .

تقبل وجودك إذن ، وشمر ساعدك . لتصنع من خامات هذا الوجود حياة إنسان عظيم وكريم .

نحن نعطى الوجود ، ونأخذ الحياة . .

وساعة الميلاد ، تدق معلنة وجودنا . . لكن ساعة الرشد ، هى التى تدق معلنة بدء حياتنا .

فإذا كنت على حظ من الرشاد كبير ، فستصنع من وجودك الخام ، حياة نابضة ، نامية ، باهرة .

فسر بوجودك فى رفق واتئاد . ميمما وجهك شطر المصاير العظيمة ، فى حفاوة ورشد . .

ومهما تبذل من جهد ، وتتفصد من عرق ، وتسهر مع نجوم الليل، فسيطلع لك فجر منبلج يبشر بمقدم الأيام المنتصرة ـ أيام حياتك الوارفة التالدة .. وعند الصباح يحمد القوم السرى ..!

* * *

مثل الوجود ، والحياة .. كمثل الصخر والتمثال .. عندما ترى مثالا ينحت من حجر أسدا .. فانظر كيف حول الحجر الأغلف إلى أسد .

إن الحجر هو الوجود ..

والتمثال ، هو الحياة ..

وكما تحول الحجر فى يد المثال الحاذق إلى أسد عجيب .. كذلك أنت عليك أن تحول وجودك الخام إلى حياة ذكية .

واعلم أن وجودك ينطوى على كل مقومات الصورة الباهرة التى تريد أن تجىء حياتك وَفْقها .

فالنموذج الذى يريده كل منا لنفسه ، رابض داخل نفسه ، محفورة معالمه على جدران وجوده ، ينتظر أن يملأ أخاديده بالحكمة وبالعزيمة ، فإذا النموذج ينهض قائما ..

عندما سأل « سقراط » أباه ، وكان هذا الأب مثَّالا بارعا .كيف يصنع بإزميله المعجزات .. ؟

أجابه قائلا : « عندما أريد أن أنحت من الصخر أسدا ، فإنى أبصر الأسد كامنا فى الحجر ، وأحس به رابضا هناك تحت السطح ينتظرنى أن أطلق سراحه .. »....!!!

وعندما سأل أمه عن سر مهارتها فى توليد الحوامل من الأمهات ، أجابته قائلة :

— « إننى فى الحق لا أصنع شيئاً ، سوى أن أعاون الطفل المستَكِنّ فى الرحم . على البزُوغ ، والانطلاق » . . ! !

إن حياة « سقراط » بما فيها من حكمة ، وما لها من شموخ ، مدينة بجلالها الباهر لهاتين الإجابتين اللتين سمعهما من أمه وأبيه .

ولقد أخبر فيما بعد ، أنه لم يصنع لكى يكتشف نفسه ، ثم لكى يساعد الآخرين على اكتشاف أنفسهم، وحيواتهم ، أكثر من هذا الذى كان يصنعه أبوه وأمه . .

ونحن جميعا . . أنت وأنا . وكل إنسان حى ، لا يصنع ثم لكى يحوّل وجوده إلى حياة ، أكثر من هذا - رؤية الأسد الكامن فى الحجر ، ومساعدته على الانطلاق . .

فتأمل دائما هذه الحكمة الجليلة التى قالها لسقراط أبوه .

— « إننى أرى الأسد كامنا فى الحجر ، وأحس به رابضا هناك ، ينتظرنى كى أطلق سراحه » نخياتك كامنة فى وجودك ، كون الأسد وهى تنتظرك لتعاونها على الانطلاق .

وهذا يتطلب منك فطنة وبصيرة . .

فالنحات الذى لا يبصر فى الحجر سوى صلابة الصخر ، يضرب ولا يبالى . .

أما الذى يبصر فى الحجر أسدا رابضا ، فإنه يحرك أزميله فى مهارة ، ويضرب الحجر فى ذكاء .

إنه يتحامى أى خطأ قد يشوه جمال الأسد الكامن هناك . .

ومن ثمّ - فهو يحرك يده فى لمسات فنّان، لا ضربات هرقل .

وهو يكابد بعقله ، لا بعضلاته .

وبذكائه ، لا بعواطفه .

وهكذا شأنك مع حياتك . .

تصور النموذج الذى تريده ، وفى أية سن كنت من سنى عمرك ، فأنت قادر على أن تولد من جديد ، وتكون لك الحياة التى تريد . .

إن فيك خيراً كثيراً ، واستعداداً هائلا للتفوق .. أبصره جيداً . . ثم احمل أزميلك ـ وانحت لنفسك الحياة التى تريدها فى حذق ، وأناة ، وإصرار ، وتمهل .

* * *

وإذا أدركت أنك تصوغ حياتك ، فلتكن من الذكاء بحيث لا تقضى عمرك فى صياغة حياة لغيرك . .

أجل ، كن من الذكاء بحيث لا يغتالك التقليد .

كن نفسك ، وعش حياتك .

إن لكل منا نموذَجه الكامن فيه ، وواجبه أن يطلق سراحه ، ويعاونه على الظهور والتألـق ..

فإذا كنت نفسك ، وعشت حياتك ، فإن كل جهودك ستتجه نحـــو نموذجك ، تجلىّ قسماته ، وتنمى حسناته ، وتؤكد استمراره وانتصاره . .

أما إذا ذهبت تقلد الآخرين ، وتبدد جهودك فى تقليدهم فأنت بهذا ، إنما تعاون نموذجهم ، هم ، على انطلاق أكثر ، وانتشار أكبر..

أنت بهذا تهمل فضائلك ومزاياك ، وتتركها للذبول والجفاف ،

بينما تُرَعرع مزايا غيرك ، التى قد لا تكون فى المستوى العالى لمزاياك التى أهملتها .

إننا نقلد ، لأننا نجهل طبيعة الحياة ، ولأننا قبل هذا كافرون بأنفسنا وبقيمتنا . .

إن الحياة تريد التنوع ، وتباركه ، وتعمل به ، وله . .

انظر ..

إن الزرع مختلف ألوانه . . والثمار لها صنوف شتى .. بل إن النوع الواحد من الفاكهة الواحدة ـ كالمانجو مثلا ، أو البرتقال ، أو العنب ، ليتنوع ، ويتشكل فى نماذج كثيرة .

وهذه البلايين من الناس الذين وُلدوا ، ويولدون ، من بدء الخليقة إلى الأبد : . يؤكدون قانون التنوع بما بينهم من تفاوت مبين .

بل حتى حين يصور الله سبحانه توأمين فى صورة واحدة أو شديدة التماثل ، فكأنه بهذا أيضاً يظهر قيمة التنوّع . .

كأنه يقول لنا : انظروا . . إنى قادر على أن أخلقكم جميعـــا متشابهين كهذه التوائم . . ولكنى لا أريد . . لأن التنوّع بركة وفى التنوّع حكمة . .

أجل ـ إن إن التنوع بركة وخير . وإنه لمن أهم مصادر الثّراء للحياة الإنسانية . .

ولو أن حياة البشر سارت على نسق واحد ، لانقرضت وبادت ..

فلماذا تقلد غيرك إذن ، وقد جئت الحياة لتكون نموذجا جديداً من نماذجها . .؟

لماذا جىء بك إلى الحياة إذن ، إذا كنت ستكون ظلا لغيرك . .

أتظن الحياة معرض ظلال . أو مسرح عرائس . . ؟؟

لا ـ إن الحيـــاة جد ، وتجديد . . وأنت هنا لتحيا حياتك وتعطى ثمرتك . .

وهذا يقتضيك أن ترفض التقليد . .

هناك فارق بين أن تقلد غيرك ، وأن تنقل إلى نفسك فضائل هذا الغير . .

فأنت بالتقليد تهدم نفسك ، وأنت بالتطعيم ، ترعرعها وتُزكيها.

حين تنقل إلى حياتك المزايا التى تنقصها ، تكون كمن يعوض فقر دمه ، بقدر محدود من حقن الدم . . وهو عمل صالح ونافع . .

لكن حين تذهب لتقلد غيرك تقليد القردة ، فإنك كمن يريد أن يستصفى آخر قطرة من دمه تجرى فى عروقه . لكى يملأ هذه العروق بدم آخر من فصيلة أخرى . . ربما تكون فى النظام الطبقى للدماء أعلى شأنا وأنبل عائلة . . «!!»

ألست تضحك من حماقة الذى يفعل هذا الصنيع . وترثى لنكبته.

ألا فاضحك تماما من حماقة من يقضى عمره غريبا عن حياته ، يقلد هذا ، ويقلد ذاك ـ تاركا ـ وجوده وحياته ومزاياه . بغير عائل ، وبلا مُعين . . !!

إنه لينطبق عليه المثل الذى يقول :

« ذهب يطلب قرنا ، فعاد ، وصوف ظهره مجزوز . . » !!

فآمن أنت بنفسك ، واحترم وجودك ، واختر حياتك . .

لا تقلد غيرك ، فتقضى العمر تائها عن نفسك . غائبا عن حقيقتك ضالا عن مصيرك . .

هل تحب أن تقضى عمرك فوق « سقّالة » معلقة بين الأنقاض . ؟

إنك تفعل هذا تماما ، حين تنفق أيامك فى تقليد هذا وتقليد ذاك.

إن الحياة تريدك أنت ..

بخيرك وشرك .. بقوتك وضعفك ، بجواهرك ، وخزفك .

لا تخف أن تكون نفسك أبدا . مهما بدا لك من غرابة مزاياك ، وجدّة رؤاك .. فلعلك بذرة جديدة تنطوى على نمط جديد من أنماط الحياة ..

لا تدع إعجابك بأحد ، كائنا ما كان ـ يصرفك عن اكتشاف نفسك . واستنبات المواهب الكامنة فيك .

ماذا كان يصيب الحياة ، لو قلد كل إنسان آخر يعجبه .. ؟

ماذا كان يصيبها ، لو قلد محمد رسول الله عمه أبا طالب . ونام عن الجديد الذى كان يحمله بين طواياه ، والذى هدى به الدنيا من ضلال ..؟؟

ماذا لو قلد بوذا أباه ، وعاش للملك والجاه وحدهما ، ولم يخرج بعظمة روحه على السائد المألوف فى بيئته .. !

ماذا لو قلد « وشنطن » أساطين أسرته ، وصاغ حياته على أن يلتزم نهجهم « كبار تجّار مزارعين » لا غير ..

ماذا لو فعل ، ولم يستجب لوديعة الحياة عنده ، وهى أن يقود أمته إلى الحرية والاستقلال ، وتصوغ معها أول وثيقة سياسية لحقوق الإنسان؟

ماذا لو استمع «لينين» لوصية أستاذه الذى حاول إغراءه باحتذائه قائلا له : إنك خلقت لتكون أستاذ جامعة ممتاز .

ماذا لو قلده ، ولم يخرج خَبْئَه العظيم فيحرر أكبر أسواق الرقيق فى الأرض من حكم القياصرة الجاثم ويقود الناس فى عزم عظيم جليل باهرإلى مطالع الضوء ، ومشارق الغد ..

ماذا لو اكتفى غاندى بتقليد والده .. فعاش محاميا ناجحا ، وكبيرا نابها فى قومه ـ يلتزم الحق أيضا . ولكن ينفض يديه من متاعب الجهاد العام الكبير فى سبيل تحرير وطنه اللاحب المريض ..

ماذا لو فعل ، ولم يقل لصوت التاريخ المنطلق من داخل نفسه لبيك . . .

ماذا كانت الحياة البشرية ، ستخسر ، لو أن هؤلاء جميعا ، وألافا ، أمثالهم ، راحوا ضحية التقليد ، ولم يُخرجوا خَبْءَ أنفسهم المعطية ، وحياتهم الجديدة الثرية . . ؟ !

ثم انظر الصورة من وجهها الآخر ، وقُل :

ماذا كانت الحياة ستدرك من خـــير ورحمة ، لو لم يقلد هتلر ، نابليون ..

ولو لم يقلد نابليون ، جنكيزخان ..

ولو لم يقلد جنكيزخان ، الاسكندر الأكبر ..

حقا . إن التقليد خيبة ، وكارثة .. وإنه لشر ما ينزله إنسان بنفسه من ضر ودمار .

* * *

احلم بدل أن تقلد .

وانسج حياتك من الأحلام الخلاقة العظيمة

احلم كثيراً ، فالذين لا يحلمون ، لا يعيشون .

احلم الأحلام الخلاقة الذكية التى تستمد صدقها ، وقوة إفصاحها عن نفسها ، من مواثيق الحياة ، ومن روح العصر .

حاول أن تكتشف مشيئة عصرك فى أعلى مراحل تطورها والتحم بها التحاماً وثيقاً . واحلم عندئذ ، فستأتى أحلامك باهرة وقادرة وستتحول إلى قرارات وحياة . .

وساعتئذ ، ستكون واحداً من الذين يقدمون للحياة أنفسهم التى صاغوها وأنجبوها .

وهذا خير ما تنتظره منك الحياة ـ أن تقدم لها حياة جديدة تنسجها أنت على غرار اخترته ، ولا تنقلها عن حياة أخرى بطريقة تشبه « شف » الصور .

إن ميزة أعاظم الرواد الذين مروا بالحياة الإنسانية تتمثل فى أنهم قدموا للحياة نماذج جديدة مبتكرة ـ هى حيواتهم التى صنعوها ، وأحسنوا صنعها .

لم تمنعهم آراء الآخرين عن أن يختاروا بأنفسهم لأنفسهم ، ما يرونه أمثل وأهدى ..

ولم يصدهم احتمال السقوط ، عن توقل المرتفعات والقمم .

ولم يصرفهم احتمال السخرية ، عن التشبث بمواقفهم العادلة .

ولو تخلى هؤلاء عن أدوارهم الكبرى .

ولو عاشوا حيواتهم من الباطن .. باطن الآخرين الذين كان يمكن أن يؤثروا فيهم .

لو جعلوا من أنفسهم طبعات مكررة لغيرهم ، ولم يَشُقوا لأنفسهم ، وللحياة طرائق جديدة ..

لو فعلوا ذلك ، لخسروا أنفسهم ، ولخسرت الحياة كل هذا الجديد السديد الذى جاءوا به ، فنموا به ثراءها ، ووسّعوا به نطاقها .

اختر حياتك من خامات جديدة ما استطعت .

واترك على الأرض بعد عمر طويل ، آثار قدمى إنسان جديد مرّ بها ، وأضاف إليها .

* * *

لا تخف أن تجىء حياتك بجديد لم يألفه الناس الذين معك وحولك ..

فمن يدرى ..؟ لعل هذا الجديد على موعد مع تطور الحياة .

كم من تقاليد كانت راسخة وطيدة تصب حيوات الناس فى قوالبها ، فيخرجون منها صورا متشابهة . وذات يوم بدأ لفرد واحد أن يخرج بحياته من ربقتها فكان هذا إيذانا بانتهاء عهدها ، وإهلال أنماط جديدة بشّر بها ، تمسّك هذا الفرد الواحد باختيار حياته ، وممارسة بحقوقه ..

* * *

إن امتلاكك أرضا ، أو دارا ، أو ثروة .. إنما هو امتلاك نسبى ...

أما الملكية الحقة المطلقة ، فهى ملكية النفس ..

أجل . . إن خير ثرواتك وأزكاها ، وأبقاها . هى نفسك ، وحياتك . . .

فلتكن سيد نفسك ، وسيد حياتك . .

واعلم أن حرية روحك كفيلة بأن تبوّئك بين الأحياء العاملين مكانا عاليا ـ إذا عرفت كيف تستخدمها فى توكيد ذاتك ، واختيار حياتك ، وإذا جعلت القانون الذى تضعه بنفسك لنفسك . مظهرا صادقا لإرادتك ، وإذا هيأت نفسك للانتفاع بالفرص العادلة التى تسنح لك ، والتى تناديك . لتصوغ منها نموذجك الخاص . . هذا النموذج الذى يتمثل فى النهاية إنسانا جديداً . وإنسانا حقاً . .

* * *

اختر حياتك إذن سالكا الطريق الذى تُهيئه لك قدراتك .

واكتشف مزاياك أنت . ثم نَمِّها مستعينا على ذلك برؤية الآخرين الذين حققوا تفوقا كبيرا . وصاغوا بأنفسهم حياة جليلة ..

لكن لاتجاوز الرؤية إلى التلاشى ..

لاتجاوز الإعجاب الحافز ، إلى التقليد الضرير ..

وَوَفق ظروفك وطاقاتك . .

وَفق استعدادك ، وذكائك ..

وَفق طموحك العاقل العادل ..

وَفق رُؤَاك الذكية الباسلة ... تقــدم وصُغْ حياتك فى غير نكوص .. وفى غير تهوُّر ..

إن الذى ينتحر بأن يعرض نفسه لما لا طاقة لها به من ثلوج قمة

عالية ، يمشروه صقيعها ـ كالذى ينتحر بإلقاء نفسه فى ظلمات بئر عميق . .

إذا حلقت طائرا فى الطبقات البعيدة من الفضاء ، بحيث تفقد التنفس والهواء : فلن تذهب شهيد السمو ، بل ضحية الغرور والنزق ..

وأيضاً ، إذا ترديت فى الحفرة الفاغرة ، فلن يكون لك عذر أنك لم تبصرها ، لأن الله جعل عينيك فى مقدمة رأسك ، ولم يجعلهما من وراء . .

ماذا يعنى هذا الذى أقول .. ؟

معناه ألا تركب الشطط فى تطوير وجودك وإرباء حياتك ..

وألا تستسلم للعجز والهزيمة .

ولكن سر فى شجاعة ، وحكمة ..

ولا تكترث وأنت تختار حياتك بمخالفة الناس . مادمت لاتخرج على القيم الإنسانية الثابتة والعليا .. ومادمت لا تفعل ذلك لمجرد الرغبة فى المخالفة والرغبة فى الظهور الساذج ..

لا تكترث بمخالفتهم ، إذا ألح عليك من ذات نفسك جديد من الأنماط يريد أن يظهر .. فأنت كما قلت لك ـ قبلا ـ نمط مستقل فريد ، مهمتك أن تعطى ثمرتك ، وتخرج جوهرك .. وتتعاون مع الآخرين من غير أن تتلاشى ، وتكمل تيار الحياة ، من غير أن تقدم نفسك طعمة لأمواجه ..

اختر حياتك عند أعلى مستويات التفوق الممكن والكمال الميسور .

ثم عشها كما هى . حياتك أنت ..

لا تضق بما يعتورها من ضعف ومن خطأ . ولا يحملنك ذلك على مغادرتها ومقاطعتها .

عشها .. عشها كلها .. عشها جميعا بحفاوة وشجاعة ، وإصرار على أن تكون سيد هذه «المملكة» الطيبة المتواضعة التى هى حياتك ..

وهكذا تعيش حاملا رايتك ، ولا تتلجلج بها يمينك فتسقط على الأرض ..

* * *

إذا أخذت لحياتك نهجها ، وصممت لها فلسفتها التى ستهدى خطاها على طول الطريق . . فقد نسجت الراية التى ستكون رمزا لحياتك كدولة ذات سيادة . . فاحمل رايتك إذن فى ولاء وعزم . . وابق إلى النهاية حاملا لها . .

ليس معنى هذا أن تجمد ، وتقف تطورك النفسى والفكرى . . فنحن نغير رقعة الراية ، إذا لوحته الشمس ، أو أوهنته الرياح . .

جدد رايتك أيضا ، ودائما ، ما دامت تمثل السمة المميزة لحياتك النامية ، وفلسفتك الذكية الصاعدة .

ودعها تخفق فى جو السماء ، معلنة أن هنا وجوداً قد تطور إلى حياة . . وحياة صاغها صاحبها فى أحسن تقويم .

ودعها ترفرف فوق كشف إنسانى جديد يزيد البشرية ثراء وغنى . . كشف يتمثل فى إنسان جديد . . هو أنت بما بذلت من جهد فى تطوير وجودك ، واكتشاف حياتك . .

وَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ اللهِ، فَإِنَّهُ حَقٌّ

وَضَعْ يَدَكَ فِي يَدِهِ، فَإِنَّهُ نِعْمَ النَّصِير

يمر تفكيرنا الديني في هذه العصور، بمرحلة تتسم بروح الانقلاب ..
على أنى ، إذ أحدثك الآن عن الله ، لا أريد أن أحتكم إلى التفكير الديني وحده ،

فالله سبحانه وتعالى ، ليس موضوع الدين فحسب ، بل هو موضوع العلم ، والفلسفة ، والأدب ، والفن ، وموضوع الحياة كلها . .
كل الكائنات العليا في هذا الكون الكبير ، تدفعها قُوًى باطنة إلى استشراف الغيب ، وتتبع الخيوط التي تهدى إلى السر الأكبر . .
سر القوة العليا التي خلقت عالمنا الفذ ، وألهمته سننه ، وقوانينه ، نظامه المحكم الوثيق . .
كل إنسان ، تناديه هذه الأسرار . .
فمنا من يسير إليها متتبعا خُطى العلماء . .
ومنا من يسير متتبعا خطى المرسلين والأنبياء . .
ومنا من يرى العلم والدين ، آيتين من آيات الله . يُعلم بهما خلقه . ويهيئهم بوساطتهما لكشف المجهول ، ومشاهدة الحقيقة جهرة وعلانية . .
هناك إذن ، من يؤثرون في هذه القضية ، التسليم والإذعان والإيمان التلقائي البسيط . .
وهناك من يؤثرون البحث ، بما يتضمنه البحث من شك ، ومحاولة واحتكام إلى البراهين .

وكثيرا مانظن أن الفريق الثانى أقرب إلى الزيغ ، وأدنى إلى الضلال ..

وهذا خطأ كبير . .

وإنه ليعنينى أن أستهلّ معك الحديث عن الله بهذه الحقيقة . .

حقيقة أنك فى عصر مختلف .. عصر لا تستطيع فيه أن تؤمن حتى تفهم .. عصر وُكل فيه إلى العقل وحده سلطة منح « جواز المرور » لكل معتقد ، ولكل إيمان ..

فهل تتعرض قضية الإيمان بالله ، للخطر ، بسبب تحكيم العقل ..؟

أما أنا ، فأقول : لا ..

وعَبر الصفحات المقبلة . سأتلمس الطريق إلى الله فى ظل العقل والبديهة ، .

واعلم ـ إذا كنت ستمضى معى ـ أن الله مبارِكٌ هذا المنهج .

فلا تخف أن تستعمل عقلك فى البحث عنه .

فهو سبحانه ، حين دعا الناس إلى التعرف إليه ـ لم يقدم نفسه إليهم فى ألغاز وأساطير . . بل قدم حقيقته عن طريق مايشاهدون من آثاره ، ودعاهم أن يستعملوا عقولهم فى الاهتداء إليه ..

فعلمهم أنفسهم أن يكتشفوا وجوده . .

وسبيلهم لهذا ـ النظر ، والتدبر ، وشحذ قُوى العقل جميعا

انظر هذه الآيات ..

« أولم يسيروا فى الأرض ، فينظروا . . .

« قل سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق . . .

«من يرزقكم من السماء والأرض ، أمَّن يملك السمع ، والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ...؟؟؟

« أمَّن جعل الأرض قرارا . ؟ وجعل خلالها أنهارا .؟، وجعل لها رواسى ؟ وجعل بين البحرين حاجزا ...؟؟؟

«أمن خلق السماوات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ..؟؟؟

«أو لم يروا أنا نأتى الأرض نَنقُصها من أطرافها ..؟

«وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهى تمرّ مرّ السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شىء ..

«إن فى خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب ..

«واختلاف ألسنتكم ، وألوانكم ..

* * *

مامعنى هذه التوجيهات للناس .. ؟

معناها أن الإيمان تجربة ، قبل أن يكون إذعانا . . ونظر عقلى ، قبل أن يكون تَلقّيا ..

وهى دعوة صريحة إلى البحث عن الحقيقة العليا من خلال ملاحظة الطبيعة ملاحظة عقلية ، وعلمية .

ولقد ذكرت فى كتابى «إنه الإنسان» ، كيف وكل الله للإنسان مهمة اكتشاف بارئه حتى يجىء إيمانه وليد إحساسه ، وحاجته ، ووسائله ..

وكيف ترك أبا الأنبياء ، وأبا الأديان « ابراهيم » عليه السلام يعانى بواكير التجربة وحده . .

ولو شاء الله ، لبادأه الوحى ، لكنه تركه يبحث ، ويتأمل . .

«فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى . . فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين . .

«فلما رأى القمر بازغا ، قال هذا ربى . . فلما أفل ، قال لئن لم يهدنى ربى ، لأكون من القوم الضالين . .

«فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربى . هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون . . إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين . .

هذا « أبو الأنبياء » يسلك إلى الله طريق العقل ، والنظر ، والتأمل مقلبا وجهه فى السماء ، معملا بحواسه فى اجتلاء الغيب متوسلا فى نطاق نسبى ، بنفس الطريقة التى يسلكها العلم اليوم ، وهى وضع الفروض ، ثم مناقشتها وفحصها . .

أجل . . من غير أن يكون يومذاك علم بالمفهوم الحديث للعلم - ترك الله رائد رسله وأنبيائه يسير وفق قواعد العلم فى البحث عنه وكشف وجوده . .

فالعلم يقوم على الفروض . لأنها توجه العمليات التى تكشف عن الحقيقة . .

ولكن الفروض كما يقول - جون ديوى - « ليس هناك حدود لمداها ولا لعمقها ، فمنها فروض ذات مجال محدود تكنيكى . .

ومنها فروض تبلغ من السعة ، اتساع الخبرة نفسها .. »

يفترض إبراهيم أن الكوكب هو الإله .. ويمشى مع هذا الفرض يحلله ، ويجربه ، حتى إذا سقط الافتراض بين يديه عاجزا عن إثبات الحقيق الذى يسعى إليه ، عدل عنه إلى فرض آخر . . وهو القمر . . ثم إلى فرض آخر ، وهى الشمس لأنها أكبر ، وأكثر نفعا ..

وإذ يسقط هذا الفرض الأخير ، يكون اختبار آخر ينمى نفسه داخل نفسه ، فترى بصيرته مالم ير بصره ، وهو اختبار عقلى أيضاً . . بيد أنه لا يعمل داخل نطاق محدود من العقل ، بل داخل العقل كله .. وينتهى إلى نتيجة تُقنعه :

مادامت كل هذه القوى تختفى وتغيب .. والله لا يمكن إلا أن يكون كالا مطلقا . . إذن فهذه ليست هى الله . . والله من وراء ذلك كله محيط . .

« إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض » .. !!

* * *

حاول إذن أن تهتـدى إلى الله بعقلك ، ولا تخف الشك ، ولا تخش الخطأ . .

فالله يعلم مدى قصور العقل الإنسانى ، ومع هذا ، فقد ندب العقل لاجتلائه والتعرف إليه . فلتحترم وسائل هذا العقل ، ولا تضق به إذا قال كيف يكون ذلك .. ؟

ولماذا لا يكون كذلك .. ؟

لا تضق بما يلقاك من شك . فالشك طريق اليقين .

وقديماً سأل أبو الأنبياء إبراهيم ، ربه أن يريه كيف يحيي الموتى..
قال الله له : أوَلم تؤْمِن .. ؟؟
قال : بلى .. ولكن ليطمئن قلبي ..
والله سبحانه يخبرنا بتلك الأزمات النفسية العاتية التى كانت تلمّ برُسله أنفسهم ، فيقول سبحانه :
« حتى إذا استيئس الرسل ، وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا »
تأمل جيدا هذه الآية « وظنوا أنهم قد كذبوا » ..
فإنها تمنحك أملا عريضا باسما فى عون الله حين تبحث عنه مهما تعتورك الشكوك ، وظنون النفس ..
ولقد دعا الرسول أصحابه ألا يعبأوا بما يصادف بعضهم من شك قائلا لهم : هذا محض الإيمان ..
فالشك . إنما ينبيء بوجود يقين ، يحاول اكتشاف نفسه . .
بل إن الشك كثيرا ما يُفجّره زحام اليقين ..!!
فدع عقلك ، ينزل زورقه فى البحار المجهولة ، وما دمت مخلصا فى رغبة الوصول إلى الحق .. فإن يدًا خفية ، ستقوده وتحميه ـ هى يد الله .. وان مراسيء كثيرة ، ستومض له بأنوارها الكاشفة .. هى مراسيء الله المبثوثة على شطآن المجهول ..
اقترب .. لا تخف ..
وتقدم .. لا تجفل ..
إن الله معنا ...

* * *

هناك رواسب كثيرة ، قد تسبب لك حيرة وقلقا ، كلما حاولت أن تستشرف الله من نافذة العقل . .

بين أنك قادر على تنحية تلك الحيرة إذا ناقشت هذه الرواسب الوجدانية ، ورددتها إلى أصولهـــا ، وفحصت هويتها فى ضوء التفكير السليم ..

وأول هذه الرواسب . راسب الطفولة ..

لحين كنتَ طفلا . سمعت عن الله أشياء كثيرة ، وعرفت الله بأذنيك ..

كنت تسمع نعوتا لله ، تختلط فيها الحقيقة بالخرافة ، فلا تميز بينها بل يلقفها وجدانك الغضّ الساذج ، ويصوغ منها تصوّرك الناشىء ، وخيالك الطفل ، صورة لله . تستقر فى وجدانك وذهنك . .

كانت هذه الصورة تستمدّ معالمها مما يلقى إلى السمع إلقاء يجىء سديدا مرة ، وغير سديد مرات ، حيث تقوم علاقتك بالله على الخوف والإذعان ..

بين أنك لم تظلّ طفلا .. فذات يوم كبرت ، ونما عقلك ، وربَتْ معارفك ، واشرأبّتْ ثقافتك . ولم تعد الصورة القابعة فى وجدانك عن الله . كافية لإقناعك ..

ومن ثمّ . يغشاك تيار من القلق الذهنى ..

لقد تصورت الله فى طفولتك . أشبه مايكون بملك فخم عظيم .

وفهمت أن كل شىء فى الوجود تقع مسئوليته المباشرة على الله . .

فالمرض ، والفقر ، والنجاح ، والفشل . . حتى عثرة القـــدم

فى الطريق قدَر من الله ، وكلمة سبقت ..

وفهمت أن الله يتربص بك عن الموت ، فلا تكاد روحك تغادر جسدك حتى يتلقاها عذاب شديد . فزرعت فى نفسك عقدة الخوف والفزع من الله ـ ومن الموت الذى هو لقاء الله . .

فلما كبرت ، وطالعت ، وتطلعت . أدرت خواطرك على تراث الطفولة هذا ، فأنكرت أكثره . .

فإذا كان الله كاملا مطلقا ، فلا يمكن إذن أن يكون،هذا الملكَ الفخم المحفورة صورته على جدران نفسك .

ولا يمكن أن يكون مسئولا عن هذه الشرور التى تملأ الأرض . .

ولا يمكن أن يكون لقاؤه على هذه الصورة من القسوة مهما تكن خطايانا ، لأنه أعلم بنا من أنفسنا . .

وأيضاً لا يمكن أن يكون القدَر الذى تلقت طفولتك بل وشبابك صورة مشوشة عنه — لا يمكن أن يكون كما يقال عنه ، وراء كل حركة ، لكل فرد ، فى كل زمان ومكان ..

وهنا يتنازعك موقفان عقليان ..

موقف يدعوك إلى نبذ الصورة كلها دون أن تبحث عن بديلها الحق . . وهكذا ، وبمنتهى السهولة تصدر حكمك ضد الله ـ بأنه لا وجود له . .

وفى نشوة مخبولة من نشوات الغرور ، تعتقد أنك تفوقت على الضعف ، والتأخر اللذين يسميهما الناس « إيمانا » وأنك حللت المشكلة التى حيرّت العالمين .. «!!!»

وموقف آخر ، يدعوك إلى فحص الصورة كلها ، وإخضاع ميراث الطفولة للفحص والتعلية ـ والتفكير من جديد فى قضية الإيمان . .

هذه الطريقة الثانية ، هى اللائقة بإنسان .. حتى حين يخطىء ، أو تبطىء عنه الهداية ، فلا يصل إلى شىء :

* * *

أما العامل الثانى من العوامل التى تجعل بيننا و بين الإيمان شُقّة ، وشقاقا ، فهو التقديس ..

إن الإيمان تقديس لاريب ..

وأنت فى سن شبابك ، وبعد شبابك ـ تبرز شخصيتك محاولة فرْض نفسها، وتوسيع نفوذها . ويتململ عقلك ثم ينهض قائماً ، تدفعه غريزة قوية إلى أن يسأل ، ويناقش ، ويعقب ، ويعارض . ويتبدّى له التقديس نوعا من الذل والخضوع لايطيقه . .

* * *

وثمت عامل ثالث ، هو أننا تعودنا أن نسمع اسم الله مقرونا بالأمر والنهى ..

فكل دعوة إلى الفضائل ، وكل نهى عن الرذائل ، إنما نبعا ـ أول ما نبعا ـ من الله ..

ونحن بنى آدم عالم يموج بالشهوات موجا .. وكل قوة تحاول صدّنا ، والحدّ من انطلاقات غرائزنا . لاتقابل منا بالارتياح على الأقل ..

وما دمنا نفهم أن الأخلاق والفضائل مصدرها الله . . أى أن

الله هو الذى وضع الشكائم لنا ، فهو إذن المسئول عما نعانيه من تناقض وبيل يجتاح علاقاتنا بهذه الأخلاقيات ..

إذا استجبنا لها ، مزقتنا الشهوة المكبوتة ..

وإذا نكصنا عنها ، حطمنا عذاب الضمير ، والخوف من عذاب الله .

* * *

وهناك عامل رابع يثبطنا عن الإيمان أيضاً .. ذلكم هو ارتباط الإيمان بالدين ..

فالدين وان لم يكن الصوت الأوحد الداعى إلى الله ، إلا أنه أول الأصوات وأعلاها ..

وإذا كان العلم ، والفلسفة يمكن أن يدلا على الله ، فدلالتهما ضمنية ..

أما الدين فهذه وظيفته ، وموضوعه . وهو يكدح فى هذا السبيل لاغير ـ سبيل الإيمان بالله ، والدعوة إليه ..

وإذْ قد تعرض الدين لأزمات كثيرة ، وتطفلت عليه كثرة هائلة من الأكاذيب ، والخرافات .. فقد أصيب الإيمان معه . وصار كثيرون من الذين يرفضون الدين ، يرفضون الإيمان أيضاً ..

* * *

والعامل الأخير الذى أختتم به عوامل التثبيط عن الإيمان . يتمثل فى فتوح العلم الهائلة ، وغزوات العقل الظافرة ..

لقد بهر العلم الناس بما كشف من أسرار ، وبما فضَّ من مجهول ،

وبما اكتشف من قوانين ..

أشبع العلم كثيرا من حاجة الناس إلى استكناه القوة الخافية التى تحرك النظام الكونى العظيم ..

وبينما كانوا يردون إلى عالم الغيب كل مايعجزون عن تفسيره ـ تقدم العلم ، فأخذ فى وجدانهم مكان الغيب ..

واتسعت الحياة اتساعا لم يكن فى الحسبان .. ولم يعد لدى أحدمن سعة البال وسعة الوقت مايسمح له بالاستغراق فى عبادة ، أو فى تأمل ماوراء الطبيعة المحسوسة ، فمشاكل العيش تكاد تأخذهم حتى عن أنفسهم ..

* * *

والآن ، عليك أن تناقش هذه المثبطات التى سردناها ، ليخلص لك طريق الإيمان لاحبا مستقيما ..

فتقدم .. إن إنكار الله ليس من اليسر بالصورة التى تتوهمها . والتى يؤكدها لك أولئك الذين يزعمون أنهم عرفوا كل شيء ، وأحاطوا بكل شيء علما ..!!

فإذا بدأت بالعامل الأول ، تبين لك أن النموذج الذى تكوّن فى طفولتك لله ليس هو الله . .بل والصورة التى تتخيلها لله فى شبابك ، أو فى شيخوختك لن تكون هى الله ..

إن الله هو « رب العالمين » .. وكفى ...

إن كونا عجيبا يسير بهذه الدقة المتناهية فى الحكمة والاتساق لا يمكن أن يكون وراءه الصدفة ، ولا الخواء ..

لا بد من قوة حكيمة مديرة ..

هذه القوة هى ـ « الله رب العالمين » ..

ما لونه .. ما حجمه .. ما نشأته .. ما هويته ..؟؟!

ذاك أمر يعجز عن إدراكه جميع أجهزة « تحقيق الشخصية» فى العالم . «١» .

وإصرارك على أن تعرف الله بهذا الأسلوب الساذج يدل على أن طفولتك لاتزال تقودك . .

لقد سئل رسول الله عليه السلام : كيف رأيت ربك ..؟

فأجاب قائلا : « نور أنَّى أراه » ..!

ولقد وضع السلف الصالح معيارا سديدا فقالوا : « كل ماخطر ببالك ، فالله بخلاف ذلك » . .

فاعرف الله ، كبيرا . . لاتدركه الأبصار . .

رحيما ، لايقسو ..

حكيما ، لا يضل ولا ينسى ..

أعطى كل شىء خَلقه ، وقانون وجوده .. وبقوانين الوجود هذه ، وسنن الحياة والكون ـ تسير الأمور من غير أن يتحمل الله مسئولية مباشرة عن تفاصيلها ..

فالله ـ مثلا ـ سخر الأرض والبحار والأنهار للناس جميعا .. وجعل منها رزقهم ، وعليها معاشهم . وجعلها تسير وفق قوانين ثابتة تخرج بها الأرض زرعها ، وتمنح بها الأنهــار ماءها ، وتحمل بها البحار فُلكها . .

فإذا اقتسم الناس الأرض قسمة جائرة ، وامتلك واحد ، آلاف الأفدنة ، وعاش آخرون على الثرى . .

وإذا تنافست الدول فى امتلاك البحار ، والسيطرة على منافذها وبغى قويها على ضعيفها ، فالمسئول هم الناس الذين لم يحسنوا تقبّل نعمة الله . .

ولقاء الله خير على أية حال ، وإذن فالموت الذى يهيء لك هذا اللقاء ، لا يمكن أن يكون وراءه عذاب وبيل ..

فأقل مستويات الكمال لله ، لا بد أن تفوق أعلى مستويات خَلقه فى الكمال . .

ونحن نرى بين خَلقه أناسا تساموْا بالرحمة وبالفضل حتى إنهم ليحسنون إلى من يسيء إليهم ، ويعطون الرداء ، لمن حاول أن يأخذ منهم الثوب .. وتهون عليهم التضحية بكل عزيز فى سبيل ألا يبصروا عينا تبكى بسببهم ، أو جفنا يرتعش خوفا منهم ..!!

أفيبلغ الناس الذين هم خَلق الله ، هذا المستوى من الحنان والرحمة .. ثم لا يكون الله أعلى مستوى ، وأوفر حنانا ، وأغدق رحمة ..؟؟!!

لقد وقف الرسول ، وهو بشر ـ يواجه يوم الفتح أعداءه الذين قاتلوه ، وأخرجوه من داره وبلده ، ومثّلوا فى وحشية بجثة عمه ، وعذّبوا أهله وأصحابه ، وجوّعوهم وأذلوهم ـ وأنزلوا بهم كل صنوف البغى والاضطهاد :

وقف تجاههم يوم الفتح ، ونواصيهم كلها بيده ، فازاد على أن حنى رأسه شكر الله ، ثم رفعه ليقول للناس : «اذهبوا فأنتم الطّلقاء» بل مضى يبالغ فى تكريمهم حتى ينسيهم أنهم مهزومون ..!!

أفيفعل هذا بشر ، ثم تتوقع أنت أن الله هناك وراء قبرك ، يترقب مجيء روحك ، ليصليها عذابا وسعيرا .؟

لقد خوفنا الدين حقا ، وكان مضطرا أن يفعل حتى يكبح الجموح ، ويُنهنه من ضراوة البغي ..

أما رحمة الله ، فهي الوعد الحق ، وهي الكلمة الأخيرة .

فاستقبل الله بهذا الفهم الذي هو حق ، لا عزاء ..

عند ئذ ترى الله بهجة الدنيا والآخرة ..

وآنئذ لن يغيب عنك ، ولن تبحث عنه ، لأنك ستجده في كل ماحولك من حياة .. في الزهرة الباسمة .. في النبت الطالع .. في شعاع الشمس .. في قطرات الغيث .. في السماء ، وفي الأرض ..

ينتظرك على شوق .. ويقول في حديثه القدسي :

« من مشى إليَّ شبراً ، مشيت إليه ذراعا .. ومن مشى إلى ذراعا ، مشيتُ إليه باعا .. ومن أتاني يمشي ، أتيته هرْوَلة .. » ...!!

ستعرفه كما ينبغي أن يعرف ـ رحيما ، لاحدود لرحمته ، وودوداً ، لامنتهى لمودته .. بارًّا ، لايفيض بره .. هو الحنان ، الجواد ، القوي ، المتعال ..

وستأنس به روحك ، وعقلك .. وستصيح من فرط النشوة ..

أهذا هو الله .. ؟ فليحي الله إذن ..! ولتتقدس أسماؤه .. وليتبارك في علاه ..

وستحس أنك تسير في صحبة صديق كبير ـ يبارك قوتك ، ويرحم ضعفك .. يشجعك على فضائلك ، ويشفق عليك من رذائلك ..

وفى كل حال ، تظلُّ يمينه المباركة مبسوطة إليك . تدعوك للنهوض ، وتناديك : أقبل ، ولا تخف إنك آمن .. انهض ، ولا تتردد ، إنى معك . .

لا يرُعك ضعفك ، فقوتى سنَدلك ..

لا يحزنك تخلفك ، فقد تسبق العرجاء ..

لا تقنط من رحمتى ؛ فرحمتى وسعت كل شىء ..

* * *

وإذا ناقشت العامل الثانى من عوامل التثبيط ، وهو ضيقك بالتقديس ، ورغبتك فى أن يتحرك وجودك فى جهاته الأربع ، ويمارس عقلك حقه فى اختيار أحكامه .. فاعلم أن هذا ، هو مايريده الله منك . .

وإذا كنت تمتلىء بهجة وحُبورا ، يوم ترى أطفالك الصغار ، يتصرفون كأنهم رجال ..

فاعلم أن الله سبحانه يرضى ويُسرّ ، حين يرى عباده الناس ، يتصرفون كأنهم آلهة . .

ولقد دعانا لهذا فقال : « كونوا ربَّانيين » . .

ويخبرنا الدين كله ، أن الله أمر الملائكة المقربين بالسجود لآدم الذى هو رمز النوع الإنسانى وعنوانه ..

الملائكة الذين يسجدون لله .. يسجدون ـ بأمر الله للإنسان ..!!

أى مغزى باهر لهذا التكريم .. ؟!!

إن تقديسك الله ، لا يعنى أنك نطفة عمياء .

وإذا كان بعض الذين أنحلوا أنفسهم أوضاعا دينية خاصة عبر التاريخ ، قد غالوا فى تقديس أنفسهم ، فالله ليس كذلك .. ولا كذلك رسله الصادقون ، وعباده الصالحون ..

* * *

أما ثالث المثبطات ، وهو ضيقنا بالأمر والنهى .. واعتبار الله مسئولا عن قيودنا الأخلاقية ..

فاعلم ـ أولا ـ أن الحياة الإنسانية حين وَعت نفسها ، أيقنت أنها لاتستطيع الاستمرار بلا أخلاق ..

فهى لكى تنمو وتطرد ، لابد أن تمجد العدل ، وتضع الظلم .. تمجد الأمانة ، وتسقط الخيانة .. تحترم الصدق ، وتمتهن الكذب .. وتقاوم القتل ، والسرقة ، والفاحشة ..

والقانون الخلق ، ضرورة الحياة .

والكفر بالله ، لايخلى من تبعات هذا القانون ومسئولياته ..

وفى بعض البيئات التى نحت الإيمان بالله جانبا ، لايزال القانون الأخلاقى سائدا .. والأوامر والنواهى على أشدّها ..

ذلك أن القانون الخلق ، يفرض نفسه فى كل زمان ومكان .. على المؤمنين بالله ، وعلى غير المؤمنين ..

فإنكارك وجود الله ، لن يُنجيك من العقاب الذى سينزله بك مجتمعك إذا خنت ، أو سرقت ، أو انتهكت حُرمة ثابتة ..

و ـ ثانياً ـ فالقانون الأخلاقى ، سواء جاء من الله ، أو من

الناس . فهو حماية لك أنت ، وسعادة لك أنت ـ ومصدره جدير بشكرك ، خليق بطاعتك ..

لأنه لو لم يكن القتل محظورا ، لأصبحت حياتك فى مَهب كل يد طائشة ..

ولو لم تكن السرقة حراما ، لصار معاشُك نهبا لكل يد خالسة أو ناهبة ..

ولو لم تكن العفة فضيلة يرعاها الناس ، لاضطربت حياتك وحياتهم اضطرابا كبيرا . .

وهكذا ، يمثل القانون الأخلاقى ، بكل فضائله التى أجمعت البشرية على احترامها ـ يمثل سياجاً يحميك ، ويذود عنك .

فإذا كان من الله ، أو من الناس ، فهو نعمة كبرى ـ وبالشكر تبقى النعم وتدوم ..

وكل تزمت من الناس فى فهم أخلاقياتهم ، وكل تنطع وجمود يصاحبان تطبيق قانونهم الأخلاقى ـ إنما تقع مسئوليته عليهم لا على الأخلاق ، ولا على مَصدر الأخلاق .

* * *

فإذا واجهت المثبط الأخير ، وهو اختلاط الايمان بالدين ، اختلاطاً عرضهما حقاً للتحريف ، والمبالغة ، والزيغ . وعرضك بالتالى لأن تضيق بالإيمان ، وبالدين .. فإنك واجد الحقيقة تسارع إليك لتصحح لك الفهم ، وتكشف لك مزايا الإيمان والدين ..

لقد سبق الدين إلى الهتاف بوجود الله ، ودعوة الناس إلى الإيمان

به ، كى يبلغوا بهذا الإيمان مستوى لائقاً من الخير ورفعة النفس . . .

ولكن الدين نفسه ابتلى بطبقات أساءت استغلاله ، كما ابتلى بإضافات وخرافات تسللت إليه ، وأخذت مكانها بين شعائره ونصوصه كما ابتلى ثالثا ، بسوء الفهم من الأجيال التى بعدت الشقة بينها وبين عصور الرسالة الأولى ، سواء فى المسيحية ، والإسلام ، والأديان الأخرى .

لكن الذى يفهم حقيقة الدين ، ويستجلى روحه ولبابه ، لايراه إلا خيرا . . وإلا يداً طولى أسدت للبشرية فى مراحل تطورها وتقدمها أجلّ الخدمات وأسماها . .

أجل ، عندما نقترب من روح الدين ، لامن شكله الخارجى وحده ـ يبهرنا النسق الموضوعى لرسالته ودعوته . . ونرى فيه قوة حافزة أكثر مايكون الحفز ، ملهمة أبدع مايكون الإلهام . .

● فدعوته للايمان بإله واحد ، لايحابى ، ولا يظلم ـ إنما هى تحرير للانسان من أرباب الأرض الذين طالما ساموا الناس خسفا ورَهقا ، وملأوا حياتهم فسادا ، وبغيا . . وإعلان لسيادة الرجل العادى . .

● وهتافه بخلود الروح ، أعظم تكريم للانسان ، وأبهى تمجيد له . . إذ فحوَى هذا الخلود ، أن الإنسان ليس مخلوقا عاديا . . بل إن له فى هذا الكون دورا مناسبا لخلوده . .

● وإعلان الدين أن الإنسان خليفة الله فى الأرض ؛ ارتفاع بالإنسان إلى مستوى قريب من الإله ذاته ، وإرهاص بأن هذا الذى

نفخ الله فيه من رُوحه ، سيذهب صاعدا حتى يبلغ فى معراج الارتقاء مالا يخطر ببال . .

أى تفاؤل بمصير الإنسان ، يفوق هذا التفاؤل . . ؟

وأى تمجيد له ، يسامت هذا التمجيد . . ؟

● ودعوة الدين إلى الإيمان بالغيب واحترامه ، تحطيم لقوَى الحجر على المستقبل . ودفع بالعزم البشرى إلى الأمام . وتشجيع على اقتحام المجهول وكشف ماوراءه من أسرار كبرى . .

أجل ، إن معنى الإيمان بالغيب ، أن وراء ما نشاهد ونحس ، عوالم لاتنتهى أسرارها وعجائبها ، وعلينا أن نؤمن بهذا الغيب ، كواقع موجود . . وهذا الإيمان يقتضى أن نحاول فضّ مغاليقه ، والسير نحوه واثقين . .

وكل نصر يحرزه العلم اليوم ، وكل فتح جديد يهم به ، لايلقى من الدين الحق إلا التشجيع ، والحضّ .

● فإذا سار العلم مع « داروِن » فى رحلته ، محاولا اكتشاف أصل الإنسان ، ثم نادى بتطوّر الإنسان من كائنات أدنى . . فسيحمد الدين هذا الصنيع ، لأنه من قرون بعيدة أبلغ الناس رغبة الله فى أن يحاولوا بأنفسهم اكتشاف مبدأ نشأتهم ، ونشأة كل شيء ، فقال القرآن فى بعض آياته :

« قل سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف بدَأ الخلق » . . .

● وإذا حاول العلم أن يغزو الفضاء ، ويتخذ سبيله إلى القمر مَهدأ فسيجد الدين يباركه ويهيب به قائلا :

« الله الذى سخر لكم السماوات والأرض ، وسخر لكم الشمس والقمر » . .

● وإذا أراد العلم أن يسعى لإطالة متوسط العمر الإنسانى للفرد.. بل إذا حاول أن يرد الموتى إلى الحياة .. ؟ فإن الدين الحق لن يقول له كفرت ، كما يحسب الجاهلون . . بل سيباركه كثيراً ، لأن الدين مؤمن بخلود الإنسان ، وهو لا يرى الموت إلا قنطرة إلى حياة أخرى . وكما ننام ونستيقظ ، فنحن كذلك نموت ونستيقظ .

أجل ، سيصفق الدين للعلم إذا رد للموتى الحياة ، لأن رسولا من رُسل الله فعل هذا ، فأخبرنا الدين أن المسيح أحيا الموتى بإذن الله . .

● وإذا حاول العلم أن يبعث الحياة ، فى المادة غير الحية . . وهى محاولة تبدو عجيبة ، أشد العجب ، فإن الدين يشجعه ، ويقول له : تقدم ، فإن إنسانا بمفرده صنع هذا . .

ذلكم هو المسيح حيث يحكى القرآن الكريم عنه هذا فيقول .

— « إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله » . . ! !

* * *

الدين فى حقيقته ، قوة تدفعنا إلى الأمام - وإذا وُجد بين نصوص الدين - أى دين - نصاً لا يزكى أغراض التقدم الإنسانى الرشيد ، فليس معناه أن الدين ضد التقدم - وإنما معناه أن هذا النص ، أو هذا الموقف ، موقوت بزمانه .

والمتدين بحق هو الذى يدرك أن شعائر الدين لا تتمثل فى شعائر دينه وحدها .. وإنما تتمثل مع هذا . أو قبل هذا فى إدراك روح

الدين . والعمل وفق هـــذه الروح ..

ورُوح الدين كما قلنا ، هى تحقيق أقصى أغراض التقدم الإنسانى ، وبلوغ الكمال الميسور للبشر فى حياتهم ، وفى أنفسهم .

وكل عمل صالح فى هذا السبيل ، عبادة .. وصلاة .

وإذا أخذت الدين وفهمته على هذه الصورة ، التى هى صورته الحقة ، فلن تحمله أوزار الأباطيل التى تطفلت عليه ، وسترتفع فى فؤادك كلمته ، وتتجلّى قيمته .. وبالتالى ، ترتفع كلمة الإيمان ، وتتجلّى قيمة الإيمان ..

* * *

إن الإيمان بالله فى حقيقته يمثل أسمى آفاق التفكير الإنسانى ، وأسمى منازع التقدم والانطلاق .

والإيمان يقول للإنسان : « وأن إلى ربك المنتهى » .

إلى ربنا المنتهى . . ؟

إذن فالله هناك ـ فى أقصى الشوط الذى قدر للبشرية أن تسيره .

وإذن ، فلكىْ نبلغ هذا المنتهى ، علينا أن نقطع الطريق كلها مهما تكن طويلة ، ويابسة . .

ولكى نشاهد السر الأكبر ، وهو « الله » علينا أن نمرّ بأسرار كثيرة ، ونفضّها

فالسير إلى الله ، سير إلى كل الحقائق التى تنتظرنا لنفضّ مغاليقها ونكتشف كنهها .

من أجل هذا ، كان العلم فى حقيقته دينا . .

وهذا العالم العاكف على مختبراته . ليس أدنى منزلة من العابد المتبتل فى محرابه .

* * *

بانتهائنا من مناقشة هذه الرواسب التى تجعل الإيمان ثقيلا على النفس ، بعيداً من العقل . ، نعود إلى العقل ذاته لنرى ، هل هو مع الإيمان بالله . أم ضد الإيمان بالله ..

وأنت تعلم ، أن ثمت فارقا بين العقل ، والعلم .. غير أننا هنا نعنى بالعقل ـ الحركة العقلية كلها بما فيها العلم نفسه ..

والآن نسأل : هل نفَى العقل وجود الله .. ؟؟

أنا لا أكتب لك بحثاً فلسفياً ، أو عظة دينية .. إنما نحاول معاً اجتلاء معالم الإيمان فى أقرب نقاطه إلى الوضوح واليُسْر . .

ونجيب على سؤالنا فنقول . إن العقل لا ينفى وجود الله . . إذا أخذنا العقل بمفهومه الصحيح .

إن أحكام العلم والعقل تستمد صدقها من حواسنا ، ومن التجربة العلمية التى نجريها فى معاملنا .

والأحكام التى تجيئنا عن هذا الطريق ، تكون موضع يقيننا ، ونسميها فى إجلال . . المعرفة . . . .

وأهم مميزات هذه « المعرفة » أنها ضد الأحكام النهائية . .

تذكر هذا جيدا . .

فإذا جاءنا من يصدر فى قضية الإيمان حكما نهائيا ، فيقول : ليس هناك إله . ؛ فإن العلم نفسه ، يقول له . هذا غرور . . لأن إصدار

مثل هذا الحكم يتطلب أن تكون قد عرفت الحقيقة كلها . . وعرفت جميع المجهول الذى سيظل سكان هذا الكوكب ملايين السنين يكشفونه جزءا فجزءا . .

وسيقول له العلم أيضا ـ إننا نستمد صدق أحكامنا من التجربة . . والمعامل لم تشهد حتى اليوم تجربة مادية تنفى وجود الله . .

فالمعرفة بمفهومها العلمى ، تتورّع عن نفى الله .

لأنه إذا كان العقل لا يؤمن إلا بما يثبت وجوده . . فواجبه ألا يجحد إلا ما يثبت نفيه . .

فمتى أثبت العقل نفى الله . . ؟

إننا نحتكم إلى العقل بتفكيره التجريبى الواقعى . .

وبالطريقة التى أثبت بها حركة الأرض ، وتحوّل المادة ، عليه أن يثبت نفى الله . .

وإذا لم يفعل ، فلا أقل من أن نحترم دوما ذلك الهاتف الأبدى الذى لا يفتأ منذ وُجد الإنسان على الأرض ، يصيح به : هناك إلاه . .

وهذا الهاتف نفسه ، حقيقة قادمة من العقل ومن المعرفة بأصدق ما للعقل وللمعرفة من دلالة .

فالعقل الإنسانى ، ليس هذا الجزء الذى نفكر به ونبحث ، والذى يطل على الكون من نوافذ حواسنا الخمس . .

هذا جزء من عقلنا الإنسانى لا غير ـ وثمت لهذا العقل مناطق أخرى تكشفت لبعض الناس الأفذاذ ، وبصروا بها مالا تبصر الكافة . .

هناك مستويات أخرى للتجربة ـ غير هذا المستوى الذى وصلنا إليه والذى نباشره فى معاملنا ـ وهى تعطى حَدْسًا صادقا كثيرا ما كان بمثابة الإشارات الضوئية التى أضاءت لتجارب العلم طريقها .

انظر . .

منذ ألفى سنة كان هناك أفراد ، شارفوا هذه المستويات الباطنة من التجربة العقلية ، فنادوا بحقائق عدت فى أعين معاصريهم خرافة ووهما .

قال « أنا كساجوراس » إن القمر أرض فيها جبال ووديان ، وإن الشمس والكواكب، أجرام نارية متكورة .. فنفاه أهل أثينا .

وبعد ألفين وأربعمائة عام اكتشفنا صدقه . . !

وفى ذلك الزمان البعيد أيضاً قال « ديمقريطس » إن هذه الذرات ليست هباء .. ولكنها طاقات هائلة ـ وفى كل ذرة شمس كشمسنا هذه ..

وبدأ فى أعين الناس مخرفا . . ولكن بعد ألفين وأربعمائة عام أيضاً اكتشف العلم صدقة ... ترى بأى أسلوب أدرك هذان الرجلان ، هاتين الحقيقتين ؟ ؟

بالحواس الخمس . . ؟

إن الحواس الخمس ، لا تستطيع وحدها اكتشاف ما فى الذرة من هَوْل . .

أم بالتجربة العلمية داخل المعمل . . ؟

لم تكن لهم يومئذ هذه القدرة على تجربة المعمل . . ولم يثبت أنهم

قالوا ما قالوا على ضوء تجارب أجروها فى معامل مشيدة . . ولو كانت تجربة علمية مشاهدة ، لما أنكرها الناس ، واتهموا أصحابها بالإلحاد ، وطاردوهم خارج الديار . .

إذن هناك عيون أخرى للعقل تتفتح فى بعض العقول المهيأة ، فتطالع المجهول ، كما يطالعه المعمل اليوم . .

وهناك إذن مستويات أخرى للتجربة الإنسانية لا تُتاح لكل الناس ، بَيد أنها تعطى أحكاما صادقة صدق التجربة العلمية نفسها ، .

وعند هذه المستويات العالية من التجربة استطاع ناس منا ، أن يعاينوا حقيقة الإيمان ، ويهتفوا بوجود الله .

فلماذا لا نصدقهم . . ؟

ولماذا نحاول أن نقيس الله بنفس الموازين التى نقيس بها أنفسنا . .

لماذا نحاول قياس حرارة الشمس بـ «ترمومتر عادى» .

إن فى حياة كل فرد إنسانى تجارب كثيرة يحس من خلالها وجود الله ، حتى لكأنه يراه .

ولكن هذه التجارب العابرة ، والأحاسيس الخافتة ، تدور فى المستوى العادى لشعورنا وتفكيرنا :

بين أن رَعيلا عظيما من البشر ، عانوا التجربة فى مستواها الأعلى ، وتحدث الله إليهم من خلالها .

أولئك هم المرسلون والأنبياء والهداة . .

فهل من حقنا أن نرفض تصديقهم ، وننتظر حتى نرى ما رأوا وحتى يتحدث الله إلينا مثلما تحدث إليهم . . ؟ !

إن أمورنا لا تسير على هذا النحو أبدا . .

فنحن لم نر الأشعة ( تحت الحمراء ) ، ومع هذا ، نؤمن بوجودها لأن أفراداً منا اكتشفوها وأخبرونا بوجودها . .

وأنت لم تفجر الذرَّة .. ولكنك تؤمن بكل أخبارها ، لأن أفرادا من العلماء فجَّروها وأطلقوا طاقتها ..

وأنت لا تُحس أدنى إحساس أن الأرض تدور ، ومع ذلك تؤمن إيماناً مطلقاً بدورانها ، لأن العلم قرر دورانها ..

وأنت لم تر الزهرة ، وعطارد ، والمريخ . . بل ولا المجموعات الشمسية الأخرى التي تعتبر مجموعتنا الشمسية كلها بالنسبة إليها . برتقالة صغيرة .. ، ومع هذا فأنت تؤمن بوجودها لأن غيرك ممن تثق بهم رآها من وراء عدسات المراصد . .

وأنت لم تقس سرعة الضوء ، ومع هذا . تؤمن بأنه يسير بسرعة .. « ١٨٦٣٠٠ » ميل ، فى الثانية الواحدة .

فلماذا تصدق كل ذلك ، وأنت لم تكتشف صدقه بنفسك ، إنما اكتشفه لك آخرون . ؟؟

قد تقول : إن الأمر مختلف ، لأنك تستطيع التأكد من صحة هذه الأشياء إذا أخذت مكانك فى أى معمل ، أو مرصد .. ؟

وهذا حق ، لكن ليس فى الأمر خلاف ، فأنت أيضاً تستطيع أن تتأكد من صدق الذين حدثوك عن الله . إذا أخذت مكانك فى معاملهم ومراصدهم ..

ومعاملهم ومراصدهم من نوع آخر ، نوع يستطيع كل إنسان

أن يمتلكه إذا جلا روحه وأيقظ كل قُوى نفسه الفاضلة .

واكتشف المناطق المخبوءة من عقله وبصيرته .

إن الإيمان الدينى ، كالإيمان العلمى - كل منهما نوعان .

إيمان رؤية .. وإيمان تصديق أومحُاكاة .

فإيمان الرؤية فى العلم ، هو ايمان العلماء الذين اكتشفوا بأنفسهم ..

وإيمان التصديق فى العلم ، هو إيمان ملايين البشر الذين لم يمارسوا التجربة بأنفسهم ، لكنهم صدقوها . .

وإيمان الرؤية فى الدين ، هو ايمان المرسلين ، والهداة الذين عاينوا وشاهدوا ، وذاقوا ..

وإيمان التصديق فى الدين ، هو إيمان الكافّة ..

فإذا رضيت أن تؤمن بحقائق العلم ، ايمان مصدّق ، لاغير . .

فلم لاتؤمن بالله ايمان مصدق أيضا ..

هل أنت مصمم على أن يكون إيمانك بالله ايمان رؤية ، ويقين مباشر . . ؟؟

حسن هذا ..

فاصنع إذن مايجب صنعه حين تريد أن يكون إيمانك بحقائق العلم إيمانا مباشراً . .

مارس تجربة الإيمان بنفسك .. عبىء لها قلبك ووعيك ، وابذل جهودا مثابرة .. وسوف يتجلى لك الله ، كما تجلّى لغيرك .

* * *

إن آلاف العصور والأحقاب التى عاشتها البشرية فوق هــذه

الأرض .. شهدت باستمرار حنينا دائبا من الناس، وتطلّعا مستمرا ، ومحاولات كادحة ، للاتصال بالله . .

إن فى كل فرد منا ، وفى نوعنا الإنسانى كله ، نزوعا يذكرنا دائماً بأن لنا خالقا وبارئا ومنشئاً ..

أو َلا َ يدل هذا النزوع على شيء ..؟

أولا يدل تصميم الناس منذ وُجدوا على أن هناك قوة عليا ، وعليهم أن يبحثوا عنها ، ويشدوا رحالهم إليها . . ألا يدل هـــذا على شيء . . ؟

سيقال لك : لقد ظلّ الناس منذ وجدوا مصممين على أن الأرض مركز الكون حتى جاء يوم تخلوا فيه عن زعمهم هذا ..

أجل .. ولكنهم تخلوا عن زعمهم ، لأن يقينًا من صنع عقولهم كشف لهم الحق ، وعرفوا به حقيقة وضع الأرض ..

فهل قدّم العلم يقينا مماثلا . يدحض إيمانهم بالله ..؟!

كلا .. بل إن العلم كلما أمعن فى فتوحاته ازداد انبهارا ، وازداد تواضعا ، وازداد إيمانا بأن مايجهله أكثر مما يعلمه ، وأن الأسرار الكبرى التى تتكشف له أكبر من أن تكون تلقائية النشأة ، عفوية المسير .!

وبعض العلماء الذين تعجّلوا الحكم ، لم يزيدوا على أن أخذوا كل الصفات المنسوبة لله ، ونسبوها للمادة..

فهم لايؤمنون بالصدفة كمحرّك للكون ..

وهم يرون فى الدقة الفذة المعجزة التى يسير بها الكون ذكاء ، وحكمة ، ومقدرة ..

هـــذا الفضاء المملوء بالمجموعات الشمسية ، كل فى فــلك يسبحون ..!!

وهذه الأرض التى انفصلت من الشمس قطعة لهب تتوهج .. ثم إذا هى تدور حول نفسها مرة كل يوم ، وحول الشمس مرة كل عام ..

وإذا من هذه الدورات . يكون ليل ، ونهار . ويكون صيف وشتاء ، وربيع ، وخريف ..

ثم هى ينفصل منها جزء آخر . يدور حولها فى تماسك ومثابرة ، قمرا لها ..

لماذا وكيف تمّ هذا التوافق الهندسى الرياضى .. ؟

وأية قوة وراءه .. ؟

إننا نبصر جهاز الراديو ، فندرك بداهة أنه تصميم قوة عاقلة ، هى الإنسان ..

فهذا الهواء ، هــذا الأثير .. هذه الموجات الكهربية التى تنقل الصوت ، أليس لها هى الأخرى مُصمم ..؟

هذا الكون .. هذا الإنسان المعجز وحده .. أليس له مصمم . ؟

يقولون المادة ..

حسن ، لكن المادة تصنع كل هذا ، خبط عشواء .. أم أن معها بصيرتها ـ وقدرتها .. ؟

لماذا إذن ، يسهل علينا الإيمان بمادة عليمة قادرة ، ويصعب علينا الإيمان بإله عليم قادر .. ؟!!

لماذا نسيغ القول بأن المادة خلقت نفسها ووضعت قوانينها التى تذهلنا حكمتها ودقتها ..

ثم لا نسيغ الإيمان بوجود قوة أخرى موجودة بذاتها ..؟!

لماذا تهضم عقولنا هذا .وترفض ذاك ..؟

الحق أن الفاصل بين الإيمان والإنكار ، فاصل وهمى ..

والحق أن الذين يعطون المادة كل هذا السلطان ، لم يغيروا من الحقيقة إلا اسمها ..!

إنهم نقلوا صفات الله « إلى المادة » .. وهذا كل مافعلوا .. !!

* * *

التمس أنت طريقك إلى الله ، وآمن بالله ، فإنه حق ..

لا تحسبن الإيمان « رجعية وتخلفا » ..

فالرجعية ، هى الإيمان بالخرافات التى تطفلت على الإيمان الحق ، وعلى الدين الخالص عبر القرون ..

أما الإيمان فى حقيقته ، ففوز ..

وأما الدين فى روحه ، فهداية ..

لاتخلنى قديسا ، أو داعيا كرّس حياته لدعوة الإيمان ، والدين .

أبدا .. أنا مجرد إنسان ، يحب الناس كثيرا ويرجو لهم الخير جميعا .. وحين يلمح طريقا يحسبها مفضية إلى خير فإنه يشعر بغبطة دافقة إذ يدل على هذه السبيل كل من يلقاه ..

وفى تجارب حياتى ، وحيوات الآخرين ، التقيت بما ملأ رُوعى يقينا بأن لنا إلها كبيراً ..

وهذه التجارب : ليست هى التى تخلق الإيمان بالله ـ ولكنها توقظ حقيقته الفطرية الكامنة فى كل منا ، والتى فطر الله الناسَ عليها .

من أجل هذا ، فأنا أدعوك إلى خير جزيل ، حين أقول لك ، ولّ وجهك شطر الله ..

* * *

الإيمان بالله ، سِمة من سِمات الامتياز العقلى ، والاستقامة الفكرية والإيمان بالله ، سِمة من سِمات الاستنارة ، وسَعة الأفق ..

ذلك أن الإنسان المثقف المستنير ، لا يرحب بالأحكام التى تحجر على مستقبل الحقيقة .. وهو يؤمن بالغيب ـ والغيب فى التحليل النهائى له ، هو كل ما لم ينكشف لنا من « الكلىّ » بعد ..

والله الذى تخفق به مشاعرنا وضمائرنا منذ وجدنا على هذه الأرض ، لا أقل من أن يكون جزءاً من ذلك الغيب .

فإذا أردت أن تنحيه بحركة من أصبعك .. مهملا بهذا حق الغيب فى أن تحترمه حتى ينكشف لك . فإنك بهذا تدل على حاجتك إلى الاستنارة والفهم ، واستقامة التفكير .

● والإيمان بالله ، مَلاذ . ، ولا أقول عزاء ..

وأكثر الناس جبروتاً وقوة ، تمر به تلك الأوقات التى يفزع فيها إلى الله ، فيجد الأمن والراحة من آفات نفسه ، ومخاوف حياته .

فإذا جعلت « خط الطول » لحياتك ، هو الإيمان المزدهر بالله ، فانك مهما تستجب للخطأ ، وللضعف ، ستظل محتفظا برباطة جأشك ،

وسلامة تقديرك . لأنك موصول الأسباب بالقوىّ الأعلى ، ولأن يده الحانية التى تتبعك من غير أن تراها ، ستمسك بناصيتك فى الوقت المناسب ، وتدفع عنك مايتربص بك من سوء وشر .

إن جميع الهداة الذين دعونا لكى نؤمن بالله ، وألحوا فى دعائهم لم يكونوا يعملون لصالح الله . بل لمنفعة البشر .. فالله سبحانه لايزيد بإيمان الناس قوة ، ولا يلحقه من جحودهم وهن .

أرأيت ، لو اجتمع أهل الأرض جميعاً ، وأنكروا وجود الشمس أيضر الشمس إنكارهم هذا .. ؟؟

كلا .. وستظل هى تبتسم لهم مرسلة نماءها وضياءها .

ولكن ،لو أن ناساً من الناس، قاطعوا الشمس ، وحرموا أنفسهم حرماناً كاملا من التعرض لضوئها ، وأشعتها ، ودفئها وقضوا أعمارهم كلها فى سراديب غائرة .

أليسوا بعملهم هذا ، يلحقون بأنفسهم ـ لا بالشمس ـ أفدح الكوارث .. ؟ !

كذلك الذين يحرمون أنفسهم نعمة الإيمان بالله ، ويحرمونها بالتالى معطيات هذا الإيمان ، ويغلقون النوافذ التى يهب الإيمان منها بشراً ورحمة ، ويعزلون وجودهم عن مصدر القوى والحياة ..

● والإيمان بالله طاقة يأخذ منها المؤمن مايشاء ، لما يشاء .

وهذه الطاقة لا تمنح القوة بجرد القوة .. بل هى تمنح القوة العادلة .. وهذا خير مايدركه إنسان حى .

أجل ، القوة العادلة ، هى مايفيئه الإيمان بالله ، أول ما يفىء ..

لأن الطيش والبغى ، يجيئان ثمرة خراب داخلى ، تعانيه نفس الطائش الباغي .. أو ثمرة غرور يُزجيه سوء تقدير أحدنا لنفسه ولحقيقته ..

والإيمان ينفى هذا عن النفس الرشيدة المؤمنة ، كما ينفى الكيرُ خبثَ الحديد .

وذلك بما يملأ به الأفئدة أمناً وثقة ، وبما يقتضيه من منهاج للسلوك وللحياة صادق وأمين :

فالإيمان بالله ، ليس مجرد تصديق نفسى .. بل هو قوة دافعة لحياتك كى تسير وفق القيَم المثلى التى تحقق لجنسنا البشرى سعادته وتفوّقه ..

● والإيمان بالله ؛ لا يرفع من مستوى حياتك الشخصية وحدها بل هو يرفع من مستوى الحياة كلها ..

لأن الإيمان ـ واذكر دائماً أننا نعنى إيمان الحقيقة ، لا إيمان الخرافة ـ

أقول ، لأن الإيمان يجعل من الحياة كلها عائلة واحدة كبرى يرعاها ربها وبارئها .

ويجعل من الحياة الإنسانية بصفة خاصة ، قلبا واحداً يؤدى عمله فى وحدة ، واتساق .

فالإنسان والحياة ، غاية من غايات الإيمان ، بل من أكثر غاياته أهمية وجلالا ..

فالإنسان ، خليفة الله ..

والحياة ، بستان الله ..

وواجب كل فرد أن يعمل مع الله فى بستانه حتى يظل نامياً مزدهراً ـ وأن يبذل من ذات نفسه حتى يحقق نوعه الإنسانى كل ما يقتضيه مستوى الخلافة عن الله من تفوق واكتمال .

● والإيمان بالله يوسع نطاق وجودنا بما يوحيه من ثقة..ويوطد دعائم آمالنا فى المستقبل بما يهبه من تفاؤل . .

فالإيمان بالله سبحانه ، يعنى التفاؤل والتهلل . ؛ لأن اليأس وليد العجز ، وتجرّع الهزيمة ..

أما المؤمن الذى يستمد من الله عونا دائماً ، فهو أبعد شأوا من أن يكبّل العجز ساقيه . . وهو حين تقع به هزيمة ، لا يحس مرارتها ؛ لأنه لا يتجرعها .

ومن ثم فهو متفائل دائماً ، ينفر من اليأس ، لأنه الإيمان يرى اليأس كفراً . . ولأن كلمة الله تناديه دوما : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . . .

إننا لا ندرك جمال الحياة وسموها إلا فى تلك الأوقات التى نحس فيها أننا نملؤ الزمان والمكان ـ وأننا مسيطرون تماماً على أنفسنا ، وعلى حياتنا ، وعلى مصايرنا . . وأننا أحرار تماماً فى اختيار مباهجنا . وفضائلنا ، وأخطائنا . .

ومن عجب ، أن لا شىء يقيح لنا كل ذلك مثلما يتيحه الإيمان بالله حسب المفهوم الصحيح لهذا الإيمان .

نحن نحسب الإيمان قيداً وغلاً . .

وهو ليس كذلك أبدا ..

إنما الإيمان إطار تتحرك داخله حياتنا دون أن نحس بضيق أو انكماش ـ لأنه إطار واسع ، لا حدود له ، لأن الله الذى هو موضوع هذا الإيمان ، لا حدود تحدّه ، ولا تخوم هناك ، تقف عندها رحمته ، وقدرته ، وهِباته .

* * *

وكما قلت لك من قبل: اختر حياتك ، وانسج بيديك بُردتها ..
أقول لك هنا : اختر إيمانك ، واجمع بنفسك وثائقه .

وَطِدْ مَسْئُولِيَتَكَ بِالْحُرِّيَةِ
وَحَصِّنْ حَيَاتَكَ بِالْعَدْلِ
وَاتْرُكْ لِلْوُجُودِ شَذَاكَ

بين الناس والحياة ميثاق ، لامناص لهم من احترامه والوفاء به إذا أرادوا أن يحيوها ..

ميثاق استمد نصوصه من ضرورات الوجود ..

وأول سطور هذا الميثاق حقيقة تقول : « عيشوا أحرارا » ..

والإنسان هنا ، فوق أرضنا هذه ، ووسط عالمه هذا ، ليس شيئاً عابرا .. ليس ضيفا عارضا ، ولا واحدا من أبناء السبيل .

إنما هو خليفة الله ، من غير مبالغة فى شأنه ، ولا مجاملة له ..

هو خليفة القوة القادرة الحكيمة التى يحيا الكون كله فى كنفها ، ويمضى فى حركته وفق قوانينها ..

هو أستاذ حياته ، وصانعها ، والمسئول عنها .

وهو مسئول عن الكوكب الذى ساده ، وأمسك بزمامه ..

مسئول عن الحياة التى حملت اسمه ، وصار اسمها « الحياة الإنسانية » مسئول عن مصيره كنوع متميز ، اختار طريقه ، ولن يسمح له بالتقهقر ، أو الهروب .

ومسئولية النوع . . المسئولية الإنسانية كلها ، تتكون من مسئوليات الأفراد الذين ينتظمهم الجنس البشرى ..

ومن ثم ، كان لكل فرد مسئولية مزدوجة . . مسئوليته تجاه

مصيره ، ومسئوليته تجاه المصير الإنسانى جميعه ..

وكل فرد يحمل مسئوليته تجاه نفسه ، يحملها فى نفس الوقت تجاه البشر كلهم ..

والأسلوب الذى يختاره لحياته ، يؤثر تلقائيا ، وبنسب متفاوتة ، فى حياة النوع بأسره ..

وامتزاج مسئولية الفرد عن نفسه بمسئوليته عن نوعه ، يرفع من مستوى هذه المسئولية ، ويضاعف من تبعاتها وخطرها .. الأمر الذى يتطلب توفير الفرص اللازمة للقيام بهذه التبعات ..

« أنت مسئول » ..

عبارة تبدو خفيفة ، سريعة ، عابرة .. ومع هذا فليس فى الحياة الإنسانية كلها ماهو أثقل ميزاناً ، وأخطر شأنا من مدلول هذه العبارة ..

* * *

لكى تباشر مسئوليتك عليك أن تتحرك ، وتعمل .. وقبل الحركة والعمل . عليك أن تفكر ، وتقرر ، وتختار ..

وأنت لاتعمل وحدك . ولا تفكر وحدك ..

إنما يتصل تفكيرك بتفكير الآخرين ، وتستمد جهودك العون من جهودهم ..

من أجل هذا ، كان توفير الفرص لإنجاز مسئولياتك ، يعنى فى نفس الوقت ، ولنفس السبب ، توفيرها للآخرين جميعاً . ولكى يجىء تفكيرك سديداً ، واختيارك رشيداً ، ينبغى أن يكون السداد طابع التفكير فى بيئتك كلها .. فإن لم يكن ، فلا أقل من أن تكون فرصه مهيأة لمن يقدر على اهتبالها والانتفاع بها .

وفى مجال المسئولية بالذات ، لاشىء يهب السداد مثل الحرية .

يفكر الناس أحراراً .. ويختارون لأنفسهم أحراراً .. ويؤدون واجباتهم أحراراً ..

* * *

إذا كنت مسئولا عن إطفاء حريق ، فيجب أن تتمكن من استعمال المضخات .

وإذا كنت مسئولا عن إنشاء حديقة ، فيجب أن تكون حراً فى اختيار بذورها ، وغرسها .

وأنت مسئول عن الحياة فى نموذجها الفردى الذى هو أنت . وفى مجالها العميم المتمثل فى كل مظاهرها ،

من أجل هذا ، يكون حقك فى اختيار قراراتك حقاً ضخما ، ضخامة مسئولياتك نفسها . وحقاً خالداً ، خلود الحياة ذاتها .

فوطدْ مسئوليتك بالحرية ..

« الحرية » ..

انظر وقع الكلمة وشفافيتها .. !

إن لها رقة النسيم ولطفه .. ! !

وكأنَّ ذلك كذلك ، ليدل على فوط بداهتها ، وقداستها .

أجل .. إنها من الضرورة ، ومن الحتمية ، ومن البداهة ، بحيث لاتحتاج إلى الكلمات الضخمة كي تعبر عنها .. لاتحتاج إلى أيّ من وسائل التوضيح والإثبات .. حتى الكلمة التى تدل عليها ، بسيطة ببساطة الحقيقة .. بدَهية بداهة المطلق .. رقيقة ، عذبة ، وديعة .

وإنها لكذلك فعلا . ومن عائد القول أن يحاول أحد توكيد حق الأحياء فى الحرية .

فما دمت حياً ، فأنت حر ..

وما دمت مسئولا ؛ فالحرية أقدس حقوقك .

ذلك أن المسئولية تجد نفسها ، وتحقق كيانها حين تعيش وتعمل فى مناخها الطبيعى ، ومجالها الحيوى ، الذى هو « الحرية »

ولقد أتى على الناس حين من الدهر ، كانوا يمارسون مسئولياتهم فى ظل الخضوع .. وأيا منذ ، كان التأخر يأخذ بزمام القافلة الإنسانية إلى الوراء ..

ولم تكن القافلة تفلت من قبضة التدهور والانحطاط ، إلا حين

يظهر فيها فرد أو أفراد يباشرون مسئولياتهم فى ظل الحرية ، ويدعون الناس إلى هذا النهج القويم .

عندئذ ، كانت المسئولية الحرة ، تقود القافلة إلى مشارف الحقيقة وكانت شمس المعرفة تغمرها بالدفء والضياء ..

إذا باشرت مسئولياتك فى ظل الخضوع والعجز ، فإن العقم يغتال حياتك ومواهبك . ويجعل منك نفاية آدمية .

أما إذا باشرتها فى ظل الحرية ورحاها ، فإنك ستكون لا ريب علامة من علامات الرشد الانسانى فى قومك وبيئتك .

ونبذُ الخضوع ، لايعنى نبذ القانون ،

كما أن العمل مع الحرية ، لايعنى التشيّع للفوضى ..

ذلك أن القانون العادل ، تنظيم لحركة الحرية وسلوكها .

ومواد القانون . أشبه ماتكون بعلامات المرور .

إن جهاز المرور لايجرد الراكب من عربته . ولا الماشى من قدميه وهو لايتحكم فى المشاة ، ولا الرّكبان ، محاولا وقف حركتهم . لكنه ينظم العبور والتلاقى حتى يمضى كل فى سبيله آمناً مُعافى .

كذلك القانون العادل مع الحرية ..

إنه ينظم استعمال كل لحريته دون أن يسلب منها شيئا .

فاحترامك لهذا القانون . لن يكون إذن خضوعا . إنما يكون استمراراً لمباشرتك حريتك .

أما الخضوع ، فهو الاستسلام الذليل لكل تحكُّم غير مشروع .

وكل مسئولية تعبر عن ذاتها فى ظل هذا الخضوع . تتلوث بآفاته ، ويصيبها من نزواته ، فتضطرب الأمور بين يديها ولا تثمر سوى أعمال هزيلة ، وحُطام يطفو فوق العباب .

فلا تغرس أعمالك ، ولا تبذر مسئولياتك فى تربة الخضوع أبدا .. وتعامل دوما مع الاقتناع . لا الإذعان .. ومع القانون . لا التحكم .

وإنك على هذا لقادر كائناً ما كنت ، وكائناً ما يكون عملك .. أطع القوانين التى وضعت لصالحك .

وامزج الطاعة للقانون ، مع الولاء للحرية مزجا يجعل منهما شيئاً واحدا يتحول إلى قوة تدفعك وتهدى خطاك .

وأسهِم بلا تردد فى أن تظل قوانين بلادك صالحة وعادلة .

* * *

قلت لك أيضاً ، إن العمل مع الحرية ، لا يعنى مسايرة الفوضى .

فطبائع الاشياء تعلمنا أنه لاسبيل ـ أى سبيل ـ لأن تنعم بحريتك ، إلا إذا تركت الآخرين ينعمون بحرياتهم .

فلكى تحتفظ بحريتك ، عليك أن تمكن الغير من الاحتفاظ بحريته .

لعلك تعرف قصة الرجل الذى كان يجلس إلى جوار آخر فى حديقة فتثاءب وبسط ذراعيه حتى صكت أصابع يده أنف جليسه . فلما استهجَن الجليس حركته هذه . قال له : أنا حر ..

هنالك أجابه الآخر : أجل . أنت حر .. ولكن حرية يدك ، تنتهى حيث تبدأ حرية أنفى .. ! !

إن هذه الطرفة أصدق تصوير لسلوك الحرية .

لحريتك ، يجب أن تسلك طريقها فوق الأرض ، لا فوق رءوس الناس .

وحريتك ، يجب أن تعمل فى وفاق تام مع حريات الآخرين .

* * *

واذكر دائماً أن الحرية معراج الحياة . وليست « الشمّاعة » التى تعلق عليها الأخطاء .

إذا تورطت فى خطأ ، أو نقيصة ، فلا تقل : أنا حر . ، فليست الحرية صندوق قمامة . بل كن شجاعا ، وقل أنا مخطىء . وكن أكثر شجاعة ، وحاول تصحيح خطئك .

إن شر ما يلحقه إنسان بنفسه ، وبالناس ، وبالحرية . من أذى ، هو التبجّح بالخطأ ، واصطناع الحرية « مشجبا » الرذائل والأخطاء ، وقفازا تخفى به الأيدى الآثمة جرائمها .

حرك مسئولياتك داخل النطاق الفسيح لحريتك العاقلة العادلة .

ولسوف تتحول هذه المسئوليات إلى خَلْق . وإبداع .

وسترى نفسك سيدا ، حتى لو كان مكانك فى المجتمع ، آخر مكان ، فى آخر صف . .

إن الإنسان الذى يباشر مسئوليته فى ظل الحرية ، والثقة ، يجعل من كل كرسى يجلس فوقه عرشا . . ومن كل عمل تتناوله يداه معجزة .

* * *

والحرية والعدل توأمان .

ولن نلتقى قط بظالم ، إلا ويحمل تحت ضلوعه روح العبيد ، وصغار الأذلاء .

ولن تجد أحداً يؤمن بالحرية ويقدسها ، ثم يرتكب ظلماً ، أو يقترف بغيا .

ترابط عجيب ، قلما يجمع بين اثنين، مثلما يجمع بين هذين التوأمين ـ الحرية ، والعدل .

كن حراً ، تكن عادلا . .

وكن عادلا ـ تعش حراً . . .

اكفر بالحرية ، تستبح كل حق . .

واكفر بالعدل ، تضطهد كل حرية . .

والظلم كئيب ، وصغير ، ومدمر .

هناك حديث قدسى يتحدث الله به عن نفسه فيقول :

« يا عبادى . . إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرّما ؛ فلا تظالموا » . .

أرأيت . . ؟ ؟

لم يقل الله إنى حرمت على نفسى . . إلا هذه المرة .

والله بطبيعة الحال ، منزه عن كل نقيصة ، فلماذا يوكد نفى الظلم عنه ، وبهذا الأسلوب الصارم .. ؟

إن ذلك كذلك ، ليعلمنا ، أن « أبا القوانين » التى تحكم الكون كله ـ هو العدل ..

وإذا كان الله الفعال لما يشاء ، قد حرَّم الظلم على نفسه ، فماذا يكون الظلم بالنسبة إلينا . ؟!

من أجل هذا ، أقول لك :

* * *

« حَصِّن حياتك بالعدل » ..

إن ميزان العدل دقيق .. ولابد لك من يقظة الروح والعقل ، لتدرك الفوارق الخافتة بين ماهو عدل ، وما هو ظلم ..

إذا اختلست من الأموال العامة للأمة ، فأنت ظالم ..

وإذا أسرفت فى مالك الخاص بك ، فأنت ظالم أيضاً ..

إذا اعتديت على غيرك ، فأنت ظالم ..

وإذا ابتهجت لعدوان وقع من غيرك ، فأنت ظالم أيضاً ...

إذا اغتصبت حقوق الآخرين ، فأنت ظالم ..

وإذا فرَّطت فى حقوقك ، فأنت ظالم أيضاً ..

إذا أسأت الظن بغيرك ، فأنت ظالم ..

وإذا عرَّضت نفسك لإساءة الظن بك ، فأنت ظالم أيضاً

إن العدل بعيد الأعماق ، واسع الآفاق .. ونقيضه الظلم كذلك ..

* * *

والعدل ، هو التزام الحق ..
والظلم ، إهدار الحق ، أو التحايل عليه ..
ولكى تحيا حياة عادلة ، امض فى حياتك وَفق الحق وحده . .
لا تتخطَ رقاب الناس فى الحياة .. وخذ دورك المشروع دون أن تُنحّى أحدا عن حقه ومكانه ..
حين تسعى لمنصب لستَ به جديرا فسعيك هذا ظلم ..
حين تنتحل جهود غيرك ، وتعزو لنفسك مالم تفعل، فانتحالُكَ هذا ظلم ..
حين تختص نفسك بامتيازات لاحق لك فيها ، فعملك هذا ظلم ..
حين تلتمس بالوساطة ، أو بالرشوة ، ماليس لك بحق ، فعملك هذا ظلم ..
وأنت ظالم إذا احتقرت آلام الناس ، ولم تبصر منهم سوى عيوبهم .
ظالم ، إذا قدمت للناس شرّ ما عندك ، وطالبتهم بخير ما عندهم .
ظالم ، إذا لم تقنع بالرغيف الذى معك ، وذهبت تقتنص اللقمة التى مع غيرك . .
ظالم ، إذا حصلت على ثروة ، لا يتكافأ معها جهدك المبذول .

ظالم . إذا حسدت غيرك على فضل يعجزك نواله ..

* * *

ليست الحياة الإنسانية مائدة قمار .. ولكنها مباراة نظيفة تدور في أعلى مستويات النزاهة ، والتكافؤ ، والصدق ..

وأنجزُ قوانين الحياة ، هو القصاص ..

والقصاص يرفض التسامح مع الظلم .. كأنه يعلم أن الظلم دمار الحياة وخرابها ، ومن ثم ، فلابد من كبحه ، وهو في عالم النُّطف ..

وإن أصدق تبيان لعدالة القصاص وصرامته ليتمثل في قول الرسول عليه السلام :

« اعمل ماشئت .. كما تَدين تُدان » ..!

أجل ، كما تدين تدان .. وبالكيل الذي تكيل به ، يُكالُ لك ..

فحصّن حياتك بالعدل ..

وأمن مصيرك بالعدل ..

ولا تترك وراءك آثار قاطع طريق ..

بل اترك للحياة عطرك ، وطهرك ، وشذاك ..

إن حياتنا الإنسانية تعتمد في استمرارها ونمائها - على رصيد الخير الذي يخلفه لها أبناؤها الأبرار .

كل كلمة طيبة .. كل سلوك عادل .. كل خطوة سديدة ، إنما تشكل الرصيد الذي تنفق منه الحياة على نفسها ، وعلى أبنائها ..

ذلك أن الحياة تنمو بالقدوة ..

وكل فرد يستطيع أن يكون قدوة بالخير الذى معه ..

وعلى الرغم مما يكون لك من خطأ ، فأنت قادر على أن تعطى القدوة بما معك من صواب وفضائل ـ شريطة أن تكون هذه الفضائل ثابتة ، عادلة ، صادقة ..

فاترك للحياة شذَى إنسان ،حمل تبعات رشده فى أمانة ..

وقضى أيامه معها فى نبل ، واستقامة ، وإخلاص .

* * *

وبعد ...

وقبل أن أطوى هذه الصفحات ، منتهيا من كتابتها ..

وقبل أن تطويها أنت ، منتهياً من قراءتها ..

دعنى أذكرك بأن شحذ قوَى الحياة يتطلب أن يتواصى الأحياء بالخير وبالحق دوما ، وأن يذكر بعضهم بعضا بمواثيق النهوض ..

وأظننا عبر هذه الصفحات ، قد تواصينا وتذاكرنا ..

ولسوف يحمل كل منا من أمانة هذا الحديث وتبعاته مايطيق ..

وسيكون أكثرنا انتفاعا به ، أكثرنا استجابة له ..

وصحيح أن العمل وَفق الحق والخير ، أمر صعب .

ولكن اذكر جيدا ، أنك إذا لم تواجه الصعاب من أجل بلوغ حياة عظيمة مستقيمة . .

فستواجه نفس الصعاب أو أشد ـ حين تعانى حياة هابطة سقيمة :

ولأن تعانى متاعب الصعود إلى القمّة . . خير وأهدى من أن تعانى متاعب الانحدار إلى السّفح . .

فاستمن بالله ، ولا تعجز . .

وفى غبطة ، تحمّل تبعة الوجود . .

وفى شجاعة ، تقبّل أمانة الحياة . .

قبل البدء فى القراءة ، احمل قلمك وصحح هذه الأخطاء المطبعية ، وشكرا ..

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب | الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ١٠ | ١٦ | خففت | خفقت | ١١٦ | ٧ | المستقبل | المستقل |
| ١٣ | ٣ | الأفذاء | الأفذاذ | ١١٧ | ١٥ | صمّا | صمّا |
| ١٣ | ٩ | يقترت | يقترب | ١٢٨ | ١ | أى اجتمع | أى إذا اجتمع |
| ١٩ | ٦ | إذا طالما | إذ طالما | ١٢٩ | ٦ | كلاًّ منا | كلاًّ منا |
| ١٩ | ١٢ | الصدقات | الصداقات | ١٣٦ | ٥ | فلالا تكن | فلا تكن |
| ٣٠ | ٤ | بحنكته | بحنكة | ١٣٨ | ١١ | تراثهم | ثرائهم |
| ٥١ | ١٦ | الساحقة | السامقة | ١٤٢ | ٢١ | منّ | منّ |
| ٥٢ | ٢٠ | رئيس الله | رئيس لك | ١٤٤ | ١٠ | لتصير إلى | لتصير |
| ٥٣ | ١٩ | بشجاعة | بشجاعته | ١٤٥ | ١٨ | وكأىّ | وكأىّ |
| ٦٢ | ٢٠ | تفرضه | تعرضه | ١٤٦ | ٩ | للحقيقه | للخيبة |
| ٨٠ | ١٣ | مجاورتك | مجاوزتك | ١٥٠ | ١٠ | تفكير هذا | تفكيرك هذ |
| ٨٦ | ١٩ | لهذيل | لهزيل | ١٦٠ | ٦ | كلاًّ منا | كلاًّ منا |
| ٨٧ | ٦ | يضف | يضيف | ١٦١ | ١ | مسلّ | مسلّ |
| ٩٣ | ١٨ | الأرزاح | الأرواح | ١٧٦ | ١٢ | لوحته | لوّحتها |
| ١٠٧ | ٤ | كلاًّ | كلاًّ | ١٧٦ | ١٢ | أوهنته | أوهنتها |
| ١٠٩ | ١٨ | تفضُّ | تفضّ | ١٧٨ | ٤ | سحبانه | سبحانه |
| ١١٣ | ٢١ | رغبته | رغبة | ١٧٤ | ٣ | بين أنك | بيد أنك |
| ١١٤ | ١٦ | إذا رأى | إذ رأى | ١٩٦ | ٤ | يسامتْ | يسامتُ |

## للمؤلف




التوزيع فى الجمهورية العراقية
مكتبة المثنى - بغداد

الثمن ١٥ ص

مطبعة مخيمر ٢٩ شارع الجيش